وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد Université Abou Bekr Belkaid

تلمسان الجزائر

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -
كلية الآداب و اللغات
مكتبة اللغة و الأدب العربي

Fac/L/IT
01/55

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

شعبة الآداب والحضارة

تخصص دراسات مقارنة في الآداب والحضارة

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر في الدراسات المقارنة في الآداب والحضارة

بعنوان:

جمالية البيئة الحضارية في الشعر الأندلسي ابن زمرك(٧٣٣هـ-٧٩٥هـ) -أنموذجا-

إعداد الطالب:

أحمد بريمة

لجنة المناقشة:

أ.د عبد اللطيف شريفي مشرفا ورئيسا

أ.د محمد زمري عضوا مناقشا

أ.د أحمد طالب عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2010-2011

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٤﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ
أَمْرِى ﴿٢٥﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٦﴾
يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة طه آية 24-27]

إهداء

إلى من فارقني بجسده وبقي معي بروحهُ ، إلى من علمني فراقهُ أن أنجح ودفكتني ذكراه لأن أمضي قدما ، إلى روح أبي في جنة الخالدين إن شاء الله.

إلى الصدر الدافئ و القلب الحاني إلى من كانت لي أما و أبا إلى من صنعت نجاحي إلى من دفكتني دوما إلى الأمام إلى حبة القلب و جنة الدنيا أمي الحبيبة أطال الله في عمرها وأبقاها لي.

إلى كل عائلتي الكريمة إلى الكتاكيت: مصطفى، يحيى، أيوب، سليمان، وليد، جمال.

إلى أصدقائي وإلى كل من ساهم في نجاح هذا العمل.

برتيمة أحمد . 02_06_ 2011م.

كلمة شكرٍ وتقدير

تحية تقدير وعرفان إلى الأستاذ المحترم عبد اللطيف شريفي الذي أمدّني بالمساعدة وأفادني بنصائحهُ القيمة التي عبدت الطريق أمامي للوصول بهذا العمل إلى صورتهُ النهائية.

كما أقدم خالص شكري لأعضاء لجنة المناقشة الموقّرة على تجشّمها عناء القراءة والنقد والتصويب.

-أحمد برتيمة-

مقدمة

إن الالتفات إلى دراسة الشعر الأندلسي شيء جديد، فالأندلس بتاريخها الحافل وبمعمارها المتميز بحضارته، وبآدابه المتميز بخصوصياته، وما ميز الشعر فيها بوجه خاص من تجديد وابتكار، جعل هذا الأدب محل اهتمام من قبل الدارسين والباحثين الذين حرصوا على معالجة مختلف فنونه.

و يرجع الفضل فيما ظهر من أبحاث أولية حول الأدب الأندلسي (شعره ونثره) إلى نخبة من علماء الإستشراق الذين تطرقوا لدراسة التراث العربي في الأندلس بمختلف جوانبه الأدبية والتاريخية والحضارية، فأظهروا مخطوطات كانت ضائعة ، ونشروا كتبا و دواوين كانت مجهولة ،وحققوها بمنهج سليم أمثال المستشرق الإسباني :اميليو غرسيه غومس ،هنري بيرس و لويس نيكل وآدم ميز ...الخ .

وبفضل هذه الجهود أصبح بأيدي الدارسين نفائس ثمينة مما جادت به قرائح الأندلسيين ،فكان ذلك باعثا قويا على وجود حركة أدبية نشطة هدفها تحليل وتقييم ما بهذا التراث الأدبي و المعماري الزاخر من قيم أصيلة، ومعان سامية، وأساليب محكمة وصور بديعة ووَصف مظاهر خلابة تفننت فيها يد الفنان المسلم.

وبالرغم من قيمة وأهمية الجهود التي صرفت في هذا المجال لإخراج إبداعات الأندلسيين الأدبية والحضارية إلى النور وتثمينها، فإن الظاهرة التي تلفت الانتباه أنه هناك قلة من الباحثين والدارسين الذين كتبوا عن بعض الشعراء الذي كان لهم إنتاج شعري زاخر ومن هؤلاء الشعراء نذكر شاعرنا "ابن زمرك" الذي كان محل دراستنا.

لقد جاء أسلوبه مفعما بالصور البيانية والبلاغية، صور تتسم بالانسجام والتناسق والسهولة ولاسيما في الموشحات فساد عليها جو موسيقي عذب وقع على الأذان ولقد برهن ابن زمرك على مدى مخيلة خصبة سمحت له بالإبداع والتوفيق.

إن النقاد قديما وحديثا أجمعوا على الثناء عليه وجعلوا منه أكبر شاعر في زمانه وقد كان آخر وتر تغنّت به الأندلس، آنذاك قبل غروب الشمس.

وهذا "غارسيه فوماس" المستشرق الإسباني الشهير الذي يقول فيه : "إن ابن زمرك كان آخر شاعر عظيم في الأندلس ومنه احتضر الشعر الأندلسي مجهدا عبر القرون وكان هذا الاحتضار مواكبا لاحتضار كل مظاهر الإبداع في الفكر الإسلامي "، كان ابن زمرك قبل كل شيء شاعر مجيدا و موشحا مفلقا ، فانفتحت أمامه أبواب الحمراء وقتما كان لا يملك إلا سحر شعره ، سحرا استولى على قلب الملك الغرناطي الذي أصبح من أكبر المعجبين أعجابا أداه إلى تخليد ابن زمرك وذلك باختيار عدد وافر من أبياته الشعرية استعملت للزخرفة ونقش إطارات النوافذ والأروقة والمباني الملكية وجدران الحمراء الشهيرة ، وطرز الخلع الفاخرة وهذا يدل على استعذاب الغني بالله لهذا الشعر وهذا ما أودى بالمستشرق غارثيه غوماث إلى تسمية ابن زمرك "بشاعر الحمراء" تلك الحمراء التي تعد من أثمن النشرات في العالم ، فالمختارات الشعرية كست الجدران وأحاطت فسقيات نوافذ المياه ، فبشعره اطلعنا على البيئة الحضارية في الأندلس وذلك من خلال وصف المباني و القصور .

ولهذا السبب حاولت أن أغوص في شعره و أبحث عن جمالية البيئة الحضارية في شعره.

وكان من وراء هذا الدافع مجموعة من التساؤلات عن هذا الجمال الحضاري وعن هذا الشاعر:

ـ كيف استطاع بفضل شعره أن يحتل مكانة عند الغني بالله (ملك غرناطة)؟

ـ هل وفى حقا بشعره المباني و القصور الأندلسية ؟

ـ ما هو الدافع الذي أدى به إلى وصف هذه المباني والقصور والمدن ؟

كانت هناك بعض العوائق التي كانت حاجزا للتوسع أكثر في هذا الموضوع وإعطاء لشاعرنا ولبلاد الأندلس حقهما، ومن بين هذه العوائق كان يتصدرها المدة الزمنية القصيرة ثم تأتي قلة المصادر و المراجع التي تتحدث عن الشاعر ابن زمرك وهذا ما ذكره حمدان حجاجي في كتابه " حياة و آثار ابن زمرك" بأن من حسن الحظ أن التاريخ قد احتفظ لنا بمصدرين هامين لدراسة حياة ابن زمرك فالأول يعود الفضل إلى معاصره ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة " والثاني للمقري في كتابيه "نفح الطيب" و"أزهار الرياض" .

وقد اتبعت في بحثي هذا المنهج الوصفي وذلك لملاءمته مع وصف المباني و القصور و المدن وكيف زينت الجدران بالنقوش الشعرية و الزخارف وصفا دقيقا كما فرغت منها يد الإنسان المسلم ، كما أنني لا أنكر على ذكر بعض المناهج الأخرى كالمنهج التاريخي وذلك في تاريخ الأندلس.

أما فيما يخص الخطة المتبعة، فقد عالجت بحثي هذا في ثلاث فصول:

الفصل الأول: كان عنوانه نبذة عن الاندلس اندرج تحته ثلاث مباحث ، صلت الضوء في المبحث الأول، على الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس، والفتح الإسلامي للأندلس،

ثم الهجرات الأندلسية .أما المبحث الثاني فكان تحت عنوان نبذة فنية حضارية عن الأندلس. تحدثت فيه عن الزخرفة في المباني، والزخرفة الفخارية والزخرفة الخزفية. أما المبحث الثالث. اندرج تحت عنوان نبذة عن الشعر الأندلسي عالجت من خلاله، مميزات الشعر الأندلسي، وبعض شعراء الأندلس، وصورة من فن الموشحات الأندلسية .

أما الفصل الثاني فكان عنوانه نبذة عن حياة الشاعر الأندلسي ابن زمرك، احتوى على ثلاث مباحث ، الأول عن حياته، والثاني عن نشأته وتكوينه ، أما الثالث عن سنواته الأخيرة ، وإنتاجه الشعري .

وأخيرا في الفصل الثالث. كان عنوانه جمالية شعر ابن زمرك في الو صف الحضاري. عالجته في ثلاث مباحث، الأول وصف المدن والثاني، وصف المباني، أما الثالث كان حول شعر النقوش لابن زمرك.

واعتمدت في ذلك مجموعة من المصادر و المراجع، نذكر من المصادر مثل:

الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ، وكتابي أزهار الرياض ونفح الطيب للمقري، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية . وديوان ابن زمرك أحمد سليم ألحمصي، وكذلك المقدمة لابن خلدون، لسان العرب لابن منظور، أساس البلاغة للزمخشري.

أما فيما يخص المراجع فنذكر: "حياة وآثار ابن زمرك"، و"شعر وموشحات الوزير ابن زمرك"، لحمدان حجاجي، "القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس"لأبي عبد الله الشريف الإدريسي، "في التاريخ العباسي والأندلسي"لأحمد مختار العبادي، "تاريخ الفن عند العرب والمسلمين"لأنور الرفاعي، "باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان"لحاج محمد

بن رمضان شاوش، "قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس"لعبد العزيز سالم، "مسجد قرطبة وقصر الحمراء"لعبد العزيز الدولاتي، "الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس"لمحمد عبد العزيز مرزوق، "الإنسان والحضارة. مدخل ودراسة"ليوسف الحوراني، "جماليات الفن العربي"لعفيف بهنسي، "فن التوشيح"لمصطفى عوض الكريم.

الفصل الأول

الفصـــــل الأول: لمحة عن الأندلس.

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن الأندلس.

أ_ الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس.

ب_ الفتح الإسلامي للأندلس.

ج_ الهجرات الأندلسية.

المبحث الثاني: نبذة فنية عن حضارة الأندلس.

أ_ الزخرفة في المباني.

ب_ الزخرفة الفخارية والخزفية.

المبحث الثالث: لمحة عن الشعر الأندلسي.

أ_ مميزات الشعر الأندلسي:

1/ من حيث الأغراض.

2/ من حيث الألفاظ والأساليب.

3/ من حيث المعاني.

ب_ بعض شعراء الأندلس .

ج_ صورة من فن الموشحات الأندلسية.

المبحث الأول:

نبذة تاريخية عن الأندلس.

أـــ الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس:

"مبدؤه من المغرب الأقصى حيث البحر المظلم ومنه يخرج خليج البحر الشـــامي مارا على المشرق، وفي هذا البحر المرسوم بلاد الأندلس المسماة باليونانية "إســـبانيا "، وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها مثلث وتضيق من ناحية المشرق حتى تكـــون بـــين البحر الشامي والبحر المظلم والمحيط بجزيرة الأندلس".[1]

تقع شبه أيبيريا في جنوب غرب أوروبا، يحدها من المشرق البحر الأبيض المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي يفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال ألبرت التي تتخللـــها ممرات ومضايق تصل بين البلدين مثل ممر هندايا في الغرب وممرّ"قاطالونيـــا" في الشـــرق وممرّ"شيزورا" في الوسط، لكن بالرغم من وجود هذه الممرات فإن جبال ألـــبرت قـــد جعلت اسبانيا في شبه عزلة عن بقية أوروبا.[2]

أما فيما يخص التسميات لهذه الرقعة الجغرافية فقد اختلفت باختلاف الروايات مع شيء من التقارب فنجد عند بن الأثير يقول:"أول من سكنها قوم يعرفـــون بالانـــدلش فسُمِّي البلد بهم ثم عرب ذلك بسين مهملة، والنصارى يسمون الأندلس إسبانيا باســـم رجل صلب فيها يقال له إشبانش".[3]

---

[1]- ابوعبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس.1983،ص:245.

2- ينظر، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي.دار النهضة بيروت لبنان.1972،ص:288.

[3]- ابوالحسن علي ابن أبي الكرم محمد ابن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. المعروف بابن الأثير،الكامل في التاريخ.ج4، بيروت لبنان.1986.ص:119.

تقع هذه البلد في شبه الجزيرة القائمة في الزاوية الجنوبية الغربية من أوروبا وقد كانت تعرف عند اليونان باسم أيبيريا وعند الرومان الذين حكموها فترة من الزمن باسم إسبانيا، ثم أغارت عليها القبائل الجرمانية التي اجتاحت أملاك الدولة الرومانية في أوروبا وغزاها أولا الوندال أو فاندلوسيا منها كلمة الأندلس.[1]

وكلمة الأندلس اشتقها العرب من كلمة أندلوش، وهي اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت أوروبا في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي الاسباني وأعطته أسمها، ثم جاء العرب الذين عربوا هذا الاسم إلى الأندلس.[2]

إن تضاريس شبه جزيرة إيبيريا تشبه تضاريس المغرب إلى حد كبير البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي تحيط بها من الشرق والغرب والجنوب حتى أن العرب سموها بجزيرة الأندلس مثل جزيرة المغرب ، وكذلك نجد جبال البرتات في شمال إسبانيا تشبه في تكوينها جبال الأطلس في المغرب وجبال الثلج المعروفة باسم شلير حول غرناطة تشبه جبال الريف في شمال المغرب، وسهل الأندلس في الجنوب يقابل سهل تازة وسبو في المغرب، كما تتخللها أنهار وأودية من الغرب أو العكس مثل نهر الإيبيرو ونهر تاخو في الجنوب ، ونهر الوادي الكبير الذي تقع عليه العواصم الأندلسية مثل قرطبة، اشبيليا وقادس. [3]

---

[1]- ينظر: محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس. دار الثقافة. بيروت. لبنان. ص27.

[2]- ينظر، أحمد مختار العبادي، في التاريخ العباسي والأندلسي. المرجع السابق. ص:227.

[3]- ينظر، أحمد مختار العبادي، المرجع نفسه. ص:229.

ب_ الفتح الإسلامي للأندلس:

كان دخول طارق الأندلس في رمضان سنة اثنين وتسعين للهجرة، وكان سبب دخوله الأندلس أن تاجرا من تجار العجم يسمى يليان، كان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر، فتوفيت زوجة التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره "لوذريق" بالتوجه إلى العدوة فاعتذر له بوفاة زوجته وبأنه ليس له أحد يترك عنده ابنته، فأمر بإدخالها القصر فوقعت عين لوذريق عليها فاستمنحها قبالها، فأعلمت أباها بذلك عند قدومه. فقال للوذريق: تركت خيلا وبزاة لم يرى مثلها فأذن له في التوجه فيها وبعث معه المال فقصد إلى طارق بن زياد ورغبه في الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة فكتب طارق بن زياد إلى موسى بن نصير يعلمه بذلك فأمره بالدخول فحشد طارق جيشه وأعده للمواجه.[1]

ومنه فإن قرار الفتح لم يكن عشوائيا بل كان نتيجة تخطيط مسبق من قبل قادة الفتح والخليفة. كان فتح المسلمين لإسبانيا نتيجة لخطة موضوعة أيضا أقرها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بدمشق باتفاق مع قائده بالمغرب موسى بن النصير وفي ذلك يقول عريب بن مسعد:" فاستشار موسى الوليد بن عبد الملك إما مراسلة وإما نهض موسى إليه بنفسه، فأشار عليه الوليد أن يختبرها بالسرايا ولا يغرر بجيوش المسلمين. "قام موسى بعدة غارات استكشافية على جنوب إسبانيا لجس النبض."[2]

[1]- ينظر: أبو بكر بن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس. تحقيق وتعليق إسماعيل العربي. المؤسس الوطنية للكتاب الجزائر. 1995.ص:22.

[2]- أحمد مختار العبادي. المرجع السابق.ص: 264.

أهمها غارة طريف في رمضان سنة واحد وتسعين للهجرة على ساحل إسبانيا ونزل طريف وجنوده وأغاروا على المناطق التي تليها إلى جهة الجزيرة الخضراء وأصاب سبيا ومالا كثيرا ورجع سالما فتبين لموسى أن ماقاله يوليان عن ضعف المقاومة الإسبانية كان صحيحا .فأعد جيشا كبيرا من سبعة آلاف محارب لغزو الأندلس بقيادة قائده طارق بن زياد ونائبه على طنجة، وبهذا نرى أن فتح المسلمين لإسبانيا لم يكن منذ البداية مغامرة حربية ارتجالية بل كان فتحا منظما حسب خطة موضوعة من قبل.[1]

أما رواية ابن الأثير فيقول: "...وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير في اثني عشر ألفا فلقي ملك الأندلس واسمه أذرينوق، فزحف إليه طارق بجميع من معه وزحف الأذرينوق...فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل طارق الأذرينوق وفتح الأندلس سنة اثنتين وتسعين للهجرة."[2]

فلم جاوز طارق وصار بعدوة الأندلس كان أول ما افتتحه مدينة قرطاجنة بكوره الجزيرة ثم تقيم فلقي لوذريق فكان ما تقدم ذكره.

ثم تقدم إلى إستجة إلى قرطبة ثم إلى طليطلة ثم إلى الفج المعروف بفج طارق الذي دخل منه جليقة حتى انتهى إلى إشترقة . وشد موسى بن نصير حصون الأندلس واستخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس وأسكنه في اشبيلية وخلف مع حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وقام عبد العزيز بفتح ما بقي من مدائن الأندلس.[3]

---

[1]-ينظر: أحمد مختار العبادي، المرجع السابق. ص: 265.
[2]- ابن الأثير. المصدر السابق. ص:119.
[3]-- ينظر: ابن القوطية. المصدر السابق.ص:23.

وهكذا سقطت معظم شبه جزيرة إيبيريا في يد المسلمين و لم يبق منها إلا بعض الأطراف الشرقية والغربية، وهي كلها تصفية ختامية لعملية الفتح الكبير، أما شرق الأندلس فقد فتح على يد الاميرعبد العزيز بن موسى بن نصير الذي خلف على ولاية الأندلس.[1]

ومنه فقد أصبحت الأندلس تحت راية الخلافة الإسلامية باختلاف نظم حكمها واختلاف الأسر المتعاقبة على الحكم بالأندلس لمدة ثمانية قرون حتى دب الضعف فيها وتمكن منها الأعداء المسيحيون الإسبان منتهزين فرصة تناحر أمراءها واختلافهم على الحكم واقتتالهم من أجل الخلافة.

قوية حركت الاسترداد المسيحي فضعفت شوكة المسلمين وتخاذلوا وزال سلطانهم وأصبحوا فارين بأنفسهم وذويهم من بطش الحركات الاستردادية المسيحية المجتاحة، ومحاكم التفتيش والتجسس التي انتشرت بالأراضي الإسلامية في المغرب والأندلس.

ج- الهجرات الأندلسية:

الدولتان المغربة والأندلسية كانتا تحت ظل الخلافة الإسلامية منذ الفتح الإسلامي حتى انتهاء الدولة الأموية بالأندلس، بحيث كان التنقل مسموحا بين البلدين هذا ما جعل المؤرخين في تلك الفترة لا يولون أهمية قصوى لتلك الهجرات بما أن القطرين كان في واقع الأمر تحت حكم دولة واحدة و هذا منذ العهد الأموي بالأندلس إلى أواخر العهد الموحدي،كان التنقل به مسموحا بين الضفتين لكل من أراد ذلك، ولا شك أن كثير من أهل الشمال قد نزحوا إلى بلدان المغرب و استقروا بها غير أن المؤرخين

[1]- ينظر: أحمد مختار العبادي. المرجع السابق.ص:281.

كانوا ينظرون إلى تلك الهجرات على أنها تنقلات عادية يقوم بها مواطنون بين أجزاء وطن واحد لذلك لم يهتموا بتلك الهجرات .

وهناك سبب آخر جعل المؤرخين لا يعطون هذا النزوح الذي كان يقع من الأندلس إلى المغرب في تلك الفترة صفات الهجرات هو أن أغلب هؤلاء الأندلسيين المهاجرين إلى شمال إفريقيا هم في الواقع أفارقة اضطرتهم ظروف معاشيه أو سياسية في وقت ما للنزوح إلى الجزيرة، وعندما تغيرت تلك الظروف رجعوا هم أنفسهم وأبنائهم إلى منبتهم الأصلي، حيث لازال لهم أهل وعشائر متفرقة في بلدان المغرب.[1]

إن ضياع وسقوط جزر البليار وسقوط بعض حواضر الأندلس مثل: إشبيلية ومرسيا وفاين وقرطبة فلينسيا وهذا في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي جعلت جملة من المسلمين يقصدون الأراضي الإسلامية على الضفة الأخرى ثم انخفض عددهم ليرتفع في نهاية القرن الخامس عشر عند سقوط غرناطة، و القليل منهم قصد بلاد المشرق ولكن الأغلبية استقرت في بلاد المغرب وخاصة في المدن الساحلية في شمال إفريقيا.[2]

لقد اتخذت هذه الهجرات عدت مظاهر بفعل عدة أسباب سنحاول إبراز بعض مظاهر هذه الهجرات ثم نربطها بالدوافع والأسباب التي كانت من ورائها مثلا عند استمرار حصار آبدة

من يناير حتى جويلية سنة ألف ومائتين وثلاثة وثلاثين (أواخر سنة ستمائة وثلاثين للهجرة) فلما عدمت القوات و لم ترد أية نجدة من أية جهة اضطرت أبدة إلى التسليم

1- ينظر: محمد الجون: أثر الأندلسيون في الأدب الموحدي.ص:235.
2- ينظر: محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين و الموحدين في الأندلس و المغرب،ج2،ط1، القاهرة.1964م.ص:402.

بالأمان على أن يؤمن سكانها أنفسهم وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم وأمتعتهم ما يستطيعون حمله معهم وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضي الإسلامية .

هذا كل من أشكال الهجرة الداخلية بالأندلس أوالنزوح بفعل الحصار وبطش الحروب، نزح السكان في الأندلس من أقاليم ساخنة متوترة إلى أخرى آمنة.[1]

لما سقطت فلنسيا وما يليها من القواعد القريبة في أيدي النصارى نزح الكثير من أهلها إلى قواعد الأندلس الباقية في الشرق والجنوب والوسط وعبر في نفس الوقت الكثير منهم البحر إلى العدوة واستقروا في مختلف أنحائها .

أصدر الخليفة الموحدي الرشيد ظهيرا في الحادي عشر من شهر شعبان سنة ستمائة وسبعة وثلاثين هجري إلى المتنقلين من أهل بلينسية وجزيرة شيقر وشاطبة وغيرها يأذن لهم فيه بالنزول في رباط الفتح .وهو وثيقة ذات أهمية خاصة تلقي ضوءا كبيرا على مصير من شردهم محنة الاهيار من أهل الأندلس ، وكانوا يلقون من أنحاء العدوى من ضروب المسماة والعطف والترحيب.[2]

بالإضافة إلى مظهر أو شكل آخر من أشكال الهجرة وهو التهجير القسري أو بمعنى النفي أوالتغريب، وفي هذا الشأن نذكر حادثة على سبيل التمثيل لا الحصر.

اعتزم ابن الأحمر أن يسير إلى "الميرية" لافتتاحها وسحق ابن الرميمي وزير ابن هود وقاتله فسار إليها في بعض قواته وحاصرها من ناحية البر بشدة ولبث على حصارها حينا فلما رأى ابن الرميمي أنه لا أمل في النجاة من مصيره، غادر "ألميرية" من جهة

---

[1]- ينظر، محمد عبد الله عنان. المرجع السابق.ص:403.

[2]- ينظر، محمد عبد الله عنان. المرجع نسه. ص: 430.

البحر في مركب شحنه بأهله وأمواله سار إلى تونس حيث لجأ إلى أميرها أبي زكريا الحفصي واستقر بها تحت كنفه ورعايته.[1]

فالواقع أن التاريخ لم يعر أي اهتمام للهجرات التي وقعت من قبل اشتداد حركة الاسترداد، أوأنه لم يعطي حركة النزوح التي كانت تقع بين الضفتين آنذاك طابع الهجرات بمعنى الكلمة وهذا لعدة أسباب نلخص أهمها أن الهجرات كانت تقع في الفترة الموحدية بقليل، إذا ماقيست بتلك التي وقعت عقب محاكم التفتيش لذلك لم يشتغل المؤرخون لتدوينها إذ لم تكن تشكل ظاهرة بارزة.[2]

لا تفوتنا الإشارة هنا إلى سرد حادثة الهجرة الجماعية إثر حركة الاسترداد من قبل المسيحيين الإسبان والمتمثلة في سقوط مدية اشبيلية على يد ملك "قشتالة" وإخلائها من قبل المسلمين، وقضى المسلمين زهاء شهر في إخلاء المدينة وتصفية شؤونهم و بيع متاعهم وكان ملك قشتالة يسرح سريات من فرسانه لتامين المهاجرين منهم بطريق البحر وخصص لذلك أسطولا يتكون من خمسة سفن كبيرة وثمانية صغيرة .

خرجت من اشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددهم، وتشتمل سائر الطبقات وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل اشبيلية من المسلمين بأربعة مائة ألف منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبته وثلاث مائة ألف هاجروا عن طريق البر (طريق شريش) وتفرقوا بمختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب وقصد من عبر البحر مختلف

[1]- ينظر، محمد الجون . المرجع السابق . ص:214.
[2]- ينظر، محمد الجون. المرجع نفسه . ص:215.

ثغور المغرب ولاسيما سبته وتونس وكان هذا أوائل شهر رمضان ستمائة وسبعة وأربعون هجري.[1]

إن اشتداد ضغط حركة الاسترداد على المسلمين والتعصب الاسباني لجنسهم وتعصبهم لدينهم المسيحي الذي رافقه الضعف الذي دب في الإمارات الإسلامية في الأندلس إثر استهزاء وترف الأمراء المسلمين بمقاليد الحكم وتناحر الملوك والطوائف فيما بينهم والفتن الداخلية والهجمات الشرسة من المسيحيين التي مكنتهم من طرد المسلمين والفتك بهم والبطش بأسرهم وأعراضهم وأموالهم .

تولدت عن هذه الظروف القاسية والمعاناة هجرات متتالية.أخذ الأندلسيون فرادى وجماعات يتوجّهون إلى المغرب العربي وكان حظ الجزائر منهم كبير فقد وفد عدد وافر على تلمسان.[2]

هؤلاء الأندلسيون استقروا في أحواز تلمسان ممتهنين لحرفهم كحرفة التطريز وحرفة التجليد، فمنهم البناؤون والحدادون والنجارون الذين جلبوا معهم هذه المهارات الأندلسية والتي لم تكن كلها عربية وإنما الكثير منها (وندالي) أو (إيبيري) والتي امتزجت بتقنيات ومهارات عربية اقتصاديا وثقافيا تدين تلمسان كثيرا لهؤلاء الأندلسيين الذين جلبوا زبدة حضارتهم إلى هذه البلد. لقد وفد إلى المغرب الأوسط عدد كثير من الأندلسيين مابين القرن الحادي عشر والسادس عشر الميلادي ،ليس بإمكاننا تحديد العدد بدقة إن كان كثيرا أم لا لكن قوة التأثير الثقافي والفني كانت أكثر من تقديراتنا.[3]

---

[1]- ينظر: محمد عبد الله عنان. المرجع السابق. ص:486.
[2]- ينظر: محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.ص:214.
[3]- محمد عبد الله عنان: المرجع السابق. ص: 645.

ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس وأخذت قوات الأندلس الكبرى تسقط تباعا في أيدي النصارى عبر كثير من علماء الأندلس إلى ثغور إفريقيا وقواعدها ولاسيما تونس وبجاية وتلمسان، وقامت في شما ل إفريقيا في أواسط القرن السابع هجري حركة أدبية وفكرية زاهرة.[1]

فقد استولى الإسبان على غرناطة والميرية حيث انحازت الثقافة بعد سقوط قرطبة واشبيلية فما كان على المسلمين إلا أن يهجروا الأندلس العزيزة فترح منهم عدد كبير إلى الجزائر وانتشروا في حواضرها وسكن قسط كبير منهم تلمسان التي كانت على صلة وثيقة بالأندلس من قبل[2]

ظلت العدوة المغربية بالنسبة للأندلس السند القائم كعادتها سواء في الشدة أو الرخاء كانت المصدر الهام للتزود بالمقاتلين بدءا بالفتوحات وصد الهجمات وإخماد الفتن وأصبحت المنقذ الوحيد المبلي لأصوات الإغاثة المنبعثة من أعماق الأندلس من قبل المسلمين المضطهدين من طرف المسحيين ، وانتشار دواوين التفتيش ومحاكم التجسس في كامل أقاليم الأندلس.[3]

[1]- محمد عبد الله عنان. المرجع نفسه. ص: 647.
[2]_- ينظر: محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور. ص:221.
[3]- ينظر: المرجع نفسه ، ص:223.

المبحث الثاني: نبذة فنية حضارية عن الأندلس.

عندما تحدث العقاد عن الحضارة الإسلامية أشار إلى مقولة مشهورة للمستشرق أدوين هول: "إن حضارة الإسلام في الأندلس قد صنعت الخوارق في ترقية العقول والأذواق "[1]، احتلت الأندلس مكانة السمو والرفعة في ظل الحضارة الإسلامية لما حققته من أشواط هامة في مجال العلم والعمران والثقافة والفن .لقد أضحى الفن في الأندلس مقياسا هاما ضمن مقاييس الحضارة الإسلامية ومن جملة هذه الفنون "الزخرفة "، عرف الفنان المسلم كيف يجمع بين الصناعة والفن الجميل ويستوي عنده من حيث الإتقان ما تخرجه أنامله سواء في تجميل قصر كبير أو كوخ حقير، وآنية مصنوعة من الذهب أو من الطين ، كل شيء ينبغي أن ينال حظه من الفن حتى إذا كان جزء المادة المزخرفة غير ظاهر للعيان ، بفضل هذا التفاني والإتقان في العمل الفني أو في بقية الأعمال الأخرى . في كافة المجالات استطاعت الأندلس أن تثبت مكانتها الفنية في تاريخ الفن العربي الإسلامي، كما ذاع صيتها في المشرق والمغرب الإسلاميين وأوروبا بفضل مهارة فنانيها والذين كان الطلب على استقدامهم في جميع الأقطار العربية وغير العربية آنذاك.

والفن هو كل جمال يصطنعه الإنسان، كما أنه حسن الإنسان بممارسته لإنجازات الفنية مهما اختلفت وتباينت أشكالها. إن عربة الحضارة يقودها الفنان بحدسه وسبقه وليس الدارس باختباراته وتجاربه[2]

---

[1]- عباس محمود العقاد. الإسلام والحضارة الإسلامية ، المكتبة العصرية، صيدا بيروت.ص: 26

[2]- ينظر، يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة مدخل ودراسة،منشورات دار مكتبة الحياة .بيروت لبنان. 1973م.ص:86

من خلال هذه التعاريف البسيطة نستخلص أن أول وآخر مقياس للتطور و رقي أو جمود وركود حضارة ما هو الفن باختلاف مظاهره وأشكاله. لتكون فكرة واضحة عن مدى تقدم الفنون الزخرفية الأندلسية في عهد الخلافة الإسلامية بالأندلس مؤيدين إلى حد كبير صدق أقوال المؤرخين الذين هزتهم عبارات الإعجاب والوصف ولفتت نظرهم إلى جمال هذا الفن وتنوعه وغنى مواضيعه ومدى انتشاره، فهو يضم فنون إمبراطورية واسعة امتدت من الصين وتركستان شرقا إلى اسبانيا وأقصى جبل الأطلس غربا .ضمت شعوبا كثيرة كانت لها حضارات، وكانت لها فنون تأثرت بروح الإسلام وبالذوق العربي، تطورت هذه الحضارة وهذه الفنون بما لا يخالف هذا الذوق وتلك الروح.[1]

أما نظرة الشرع الإسلامي فيما يخص الفن فنصوص الكتاب و السنة واضحة و صريحة في منع الناس من العودة إلى عبادة الأوثان و الأصنام وتعظيمها،ولهذا نجد الفن العربي الإسلامي منحصرا في الهندسة المعمارية و ما يتبعها من نحت ونقش وترصيع.[2]

و عليه فإن المقصود من الفنون الزخرفية هي تلك الفنون التي تزين الآثار الثابتة من عمائر مختلفة أو تزين التحف المنقولة المصنوعة من الفخار والخزف أو النسيج و الخشب والعاج ومن المعادن والزجاج والورق والجلد، مع الجمع والدقة والإتقان في الصنع والجمال والروعة والتزين، و قد اعتمد الفنان على عنصرين اثنين في الزخرف أولهما الأشكال الهندسية من مضلعات مختلفة وأشكال متداخلة و دوائر مزجت خطوطها

1-ينظر، أنور الرفاعي، تاريخ الفن عند العرب و المسلمين، دار الفكر العربي،بيروت لبنان،ط2 ،1979م،ص:5.
2-حاج محمد بن رمضان شاوش، باقت السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بنو زيان، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1995م،ص:150.

بالكتابة،وثانيهما الأشكال النباتية التي تفننوا في تصويرها على طريق التكرار من تعريقات و أوراق مختلفة و زهور متعددة الأشكال، كما استخدم الخط العربي بأنواعه المختلفة في التزين و التفنن في اختيار الآيات القرآنية والحكم والإشعار، سنتناول بعض أنواع الزخارف:

أ- الزخرف في المباني:

إن زخرفة العمائر سواء المدنية أو الدينية أو العسكرية لأهم شاهد عيان نقف عليه في زماننا إذ من خلالها تمكنا من معرفة مهارة وتفوق الفنان الأندلسي الذي برع في زخرفة جدران قصور الملوك،والأغنياء وتفنن في نقش وتحريم الآيات والحكم في بيوت الله بأشكال هندسية وعقود رائعة، مساجد زينت بقباب و صوامع تشد إليها الناظر بتناسق ألوانها و إتقان تخطيطها،مباني حربية حصون اتسمت بالدقة و المتانة في البناء التي طغت على الجانب الزخرفي لقد عمل ملوك الأندلس على تشييد المساجد لزالت قائمة إلى اليوم تنم في زخارف جدرانها عن مهارة صناع جلبهم الأمراء من جميع الأقطار الإسلامية و غير الإسلامية من الأمثلة التي تتجلى فيها زخرفت الجدران بصورة رائعة الجامع بمدينة قرطبة منها ما هو مدهون باللون الأحمر و الأزرق و منها ما هو منقوش بالجس كالمحراب و العقود و الأعمدة المتكررة في امتداد لا يحده البصر توحي بالطبيعة الحية.[1]

قوم هذه الزخارف جميعا العناصر النباتية مع كيزان الصنوبر و فاكهة الرمان والأزهار المختلفة و شجرة الحياة التي لعبت دورا كبيرا في الفن عامة و العمائر و التحف

1- ينظر، السيد عبد العزيز سالم،قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس،دار النهضة العربية، بيروت لبنان،ج1،1971،ص:364.

المنقولة خاصة كما تكشف الفسيفساء عن الروح البيزنطية التي كانت شائعة في الفن الإسلامي في سنينه الأولي يؤيد ابن عذاري هذه الحقيقة في تاريخه من أن الخليفة الحكم بعد أن وسع مسجد قرطبة طلب من إمبراطور بإرسال كمية من فصوص الفسيفساء كما طلب إليه أيضا إيفاد بعض الصناع مع تلك الفصوص للعمل على تزيين محراب المسجد الجامع فيقول أنه حضر بالفعل مع فصوص الفسيفساء صانع بيزنطي ساهم في وضعها أغلب الظن فإن هذا قام بتعليم طائفة من صناع قرطبة تقنية صناعة الفسيفساء.[1]

من أروع القباب التي شيدها الحكم الثاني قبة المحراب الرئيسية بجامع قرطبة الكسوة تماما بالفسيفساء البيزنطية وشكلها على هيئة نجمة مثمنة الزوايا تحتوي في أعلاها على صدفة.[2]

إن زخرفت هذه الفسيفساء تعتمد على العناصر النباتية و الكتابات العربية المتضمنة نصوصا قرآنية ونصوص تاريخية، وكلمة فسيفساء تعني كلمة مفصص، وقد استعملت هذه الكلمة في المغرب دون المشرق،تقوم على رسوم مختلفة بواسطة قطع صغيرة مكعبة الشكل.[3]

إذن فالزخارف الجدارية توضح لنا جمال الزخرفة الإسلامية في عصر الخلافة الأموية بالأندلس، كما أبرزت لنا عبقرية الفنان المسلم في عملية الإبداع والإتقان هذه الحفائر أمدتنا بثروة عظيمة من أجزاء من جدران قصور هذه المدينة الإسلامية العظيمة وجميعها تزداد زينة إما بزخارف مدهونة باللونين الأحمر والأصفر أو زخارف نباتية محفورة

1- ينظر، محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق،ص:82.
2- ينظر،عبد العزيز الدولاتي،مسجد قرطبة و القصر الحمراء، دار الجنوب للنشر، تونس 1977م،ص:70.
3- ينظر، محمد عبد العزيز مرزوق. المرجع السابق.ص:83.

تتجلى في رسمها الخصائص الأندلسية. إن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وإن قراميده كانت من الذهب والفضة، وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق، في كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي، وحوض أخضر منقوش بتماثيل الإنسان جعل عليه الخليفة اثني عشر تمثالا من الذهب الحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي.[1]

وهناك زخارف مدهونة باللونين البني والأخضر مزينة بعناصر حيوانية كما نجد زخارف قصر الجعفرية تقوم على الحفر في الجص الذي كان يزين الجدران ونلمس في هذه الزخارف الأناقة ومن التزاحم والتعقيد فالزخرفة الهندسية تسير وراءها على استحياء متداخلة ومتقاطعة، فصوص متعدد، وأوراق الشجر قريبة من الطبيعة، ونجد قصر الحمراء أروع نموذج ومثال للعمارة المدنية الإسلامية تتراءى فيه عبقرية المهندس العربي بتصاميمه ومخططاته وزخارف جدرانه مسجلا بها جمال الفن الإسلامي وعظمة العرب في صناعة البناء والزخرفة. زخارف هذا القصر استمدت عناصرها الأولية من الفنون التي سبقته إلى الوجود وامتزجت في ثوب جديد ومظهر مبتكر لا يخفي أصله دون أن ننكر الشخصية القوية لهذا المبتكر.[2]

ب ــ الزخرفة الفخارية والخزفية:

تتصل الأواني الفخارية والخزفية بحياة الناس اتصالا وثيقا منذ عصور ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا، ومن هنا كانت عناية رجال الآثار بدراستها عظيمة، لأنها تعكس تدرج

[1] ـ ينظر، أنور الرفاعي، المرجع السابق. ص: 48.47.
[2] ـ ينظر، محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق.ص:93.

البشرية في سلم الرقي بصورة واضحة، فمن فخار غليظ الشكل خال من الزخارف إلى فخار متناسق الأجزاء موزون الأبعاد، مزخرف بالألوان والنقوش، إلى زخرف تتجلى فيه مهارة الصانع وذوق الفنان بصورة تكشف عن مدى تقدم الإنسان وتطوره.[1]

معظم ما عثر عليه يخص تحفا فخارية عديدة كالقلل والأطباق والقدور وجرار الزيت الصحاف والأقداح، وينقسم الخزف الذي تم الكشف عنه في الزهراء وقرطبة إلى ثلاثة أنواع:[2]

ـ نوعٌ شَعبيّ.

ـ نوعٌ مُمزجّج.

ـ نوعٌ مُذهّب.

[1]ـ ينظر، محمد عبد العزيز مرزوق، المرجع السابق .ص:99.

[2]ـ ينظر، السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق.ص:150.

المبحث الثالث:

نبذة عن الشعر الأندلسي .

أـ مميزات الشعر الأندلسي:

1_ من حيث الأغراض:

لما طاب للعرب العيش في الأندلس بتمكن سلطان بني أمية، ونقلت دواوين المشرق اخذوا يعنون بالشعر في أعراض شتى شملت فنون مرافق كل الحياة، فنظموا في كل ما نظم فيه شعراء المشرق.[1] فنجد شعراء الأندلس قد تطرقوا إلى هذا المدح ويظهر هذا جليا في قصائد ابن زمرك التي كان يمدح فيها الملك النصري الغني بالله فكان اعترافه لهذا الأخير لايعرف حدا ووصل ابن زمرك إلى منصب الوزارة بفضل الملك ، كما نجدهم كذلك تفننوا عرض آخر وهو الوصف، فوصفوا الطبيعة من أغصان وأزهار والأودية والرعد وقوس قزح ...إلخ، ومن الظواهر التي لم يعرفها شعر الطبيعة إلا مع المحدثين وذلك مانراه فيه من تداخل بين عالم الطبيعة وعالم المرأة ، وبينه وبين عالم الحب والمحبين ، فقد وصف عبد العزيز بن منذر بن عبد الرحمن الناصر الطبيعة فبدت وكأنها امرأة حية ظهر في معظمها ما قد يلفت الانتباه إليها فهمت مسرعة تستر مفاتنها من فرط خفرها وحيائها، فقال:

كأنّ الثّرى سترٌ تمدّ خلالـــــه بكؤوس راحٍ راحَهُنّ الكَواعبُ

يَستُرن مِن فَرط الحَياء مَعاصِمًا بأكمَامهنّ الخُضرِ عمَّن يُراقِبُ.[2]

---

[1]- محمد عبد المنعم الخفاجي ، الأدب الأندلسي التطور والتجديد، دار الجيل بيروت لبنان ،ط1. 1992، ص:308

[2]- شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،تحقيق احسان عباس، دار صادر بيروت لبنان. ج1، 1988.ص:79.

فنسب الشاعر إلى الطبيعة راحات ومعاصم وشبهها بخدود حية يخجلها أن تبدوا معانتها للناس .

وكما فتن الشعراء بالطبيعة الأندلسية فإنهم فتنوا أيضا بالطبيعة المصنوعة التي أبدعتها يد الإنسان، ومن أهم الموضوعات التي تناولها الشعراء في هذا المجال وهي ظاهره إقليمية محلية ترتبط أشد الارتباط بوضع الأندلس كشبه جزيرة تكثر الرحلة فيها من مكان إلى آخر عن طريق البحر. [1]

ومن الشعراء الأندلسيين الذين وصفوا السفن يوسف بن هارون الأندلسي الذي قال فيها:

والسُّفنُ جلّلَها قارُهـــا كأنّها أعراءُ حُبشـــان

كأنّها في دارٍ مِضمارُهـــا خيلٌ صُنعن في الميدان

كأنها والماءُ ميدانُهـــــا في الجوّمُنقضَّةٌ عُقبان

ترى المقَاذيفَ بأحنَائهـــا كأنهـــا تَرمي بنيران

لذاك تمشي مَشيَ صاحٍ فلو جَاوزَ أمست شِبه نَشوان. [2]

من البيّن أن الشاعر تصدى لموضوعه وهو خال الذهن من الأخيلة البدوية والتقاليد القديمة التي كانت توصف بها الإبل، ونجده أنه شبهها في وسط الماء بعقاب في الجو. كما شبهها في طور إعدادها بخيل تهيئ للحروب. وبتالي فهو احتفظ بتشبيهين تراثين.

[1]- د.أحمد هيكل. الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، ص:320.
[2]- يوسف بن هارون، شعر الرمادي، بيروت لبنان. ط1، 1980،ص:120.

ووَصف الشعراء أيضا الأبنية والصهاريج والنوافير وهذا هو شأن اهتمام ملوك الأندلس بالعمران بالتأنق في زخرفة قصورهم وتجميلها بالحدائق والصهاريج والنافورات. وقد وجدوا في تلك المباني البديعة مادة خصبة للوصف.

وهناك أغراض أخرى كالهجاء والفخر والحماسة، والتهنئة والرثاء والغزل والخمر وندمان ونساء وغلمان، وعبث ومجون، وزهد وتصوف.غير أنهم فاقوا المشارقة في بعض أغراضه، ونقصوا عنهم في أغراض أخرى ، وذلك لأسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم ونظام معيشتهم ، وطريقة تثقيفهم .

2_من حيث الألفاظ والأساليب:

نجد في الشعر الأندلسي سهولة في الألفاظ وسلامة في التراكيب وهذا راجع إلى أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدوجة وهذا راجع إلى سهولة طباعهم ولين أخلاقهم وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع فجاء أكثره جاريا مع الطبع و لم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق ومقابلة وطباق وغيرها، وما كان يقع لهم منه في عباراتهم جميل مقول لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير تعمل ولا إجهاد خاطر. [1]

فهذه الألفاظ و الأساليب تجلت عندما أقام العرب في الأندلس فظهر الشعر العربي في هذه البيئة لما رآه العربي من جمال تلك البلاد فكان عقله ثم خياله يمثلان حياتين هما: البدو والحضر فكان شعرهم منبعثا من هذين الثرين فتجلى فيه جمال الفطرة ، ونضارة الجد والهزل والمجون ووصف العواطف والمباني العمرانية. فكان لحضارة تلك البلاد

[1]- ينظر: د. محمد عبد المنعم خفاجي . المرجع السابق، ص: 110.

وجمال طبيعتها أعظم أثر في نفوس الشعراء، فجالوا بشعرهم كل شيء وقع عليه نظرهم ومر بخاطرهم حتى اتسم لهم ذلك من مميزات الشعر الأندلسي.

3_ من حيث المعاني:

نجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جدا وجلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتـــدقيق الحكماء لقلة المشتغلين منهم بالحكمة ، وبعض العامة لها، وغلب على الشعر الأندلسي الخيال والبديع الذي نشأ فيهم من ضروب الجمال المنتشر في شبه جزيرتهم ، وساعدهم ذلك على أن يجيدوا التشبيه ، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية في شعرهم. [1]

ب_ بعض شعراء الأندلس:

يرى المقري في فضل أهل الأندلس:"...والشعر عندهم له حظ عظيم و للشعراء من ملوكهم وجاهة والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة ..."[2]

احتل الشعر لدى الأندلسيين مكانة عظيمة وصار يمثل تقربا السمة الأدبية العامة في الأندلس وساعدته في ذلك عدة عوامل اجتماعية، وسياسية، و اقتصادية ، ثم إن الطبيعة الأندلسية أعطت دفعا في تألق الحركة الشعرية هذا وقد بدأ الشعر في الأندلس منذ الفتح مع أبي الخطار بن ضرار.[3] ونما واشتد ساعده في ظل الدولة الأموية عناية من حكامها وتفتق زهرا في القرن الخامس الهجري رغم الانقسامات السياسية. وتنافست المدن الكبرى وسرقت اشبيلية الأضواء،

---

[1] _ ينظر: د. محمد عبد المنعم خفاجي. المرجع،نفسه.ص:310، 311.

[2] _ ينظر: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، حققه مصطفى السقا إبراهيم الانباري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة الجنة النشر والتأليف والترجمة القاهرة ،ج1. 1939.ص:222.

[3] _ ينظر: المقري، النفح. المصدر السابق ج2، ص:283.

فأضحى للشعر مكانة مرموقة وعلى كعبه ، كما ألفت الدواوين وماجت مدن الأندلس وقصورها بالشعر وبرزت معه المعارضات الشعرية ونافست النساء الرجال فيه [1].

فلما كثر الشعر وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم مجموعة من الفنون الشعرية كالموشح والزجل كما ظهر مجموعة من الشعراء برعوا في وصف القصور والمباني والطبيعة وجادوا في ذلك ، وسنحاول التعرف على البعض القليل من شعراء الأندلس .

1_علي بن محمد بن علي ألبنا الوادي أشي أبو الحسن (ت.751هـ) :

قدم من وادي آش ليلتحق بديوان الإنشاء في دولة بني نصر ، له نظم وأدب وبراعة لسان وشعره كثير ، توفي شابا بالطاعون.

2_علي بن يحي الفزاري المالقي ابن البربري (ت: 750 هـ):

كان حسن الخط، جيد الشعر له شعر في مدح الملوك و الكبراء.[2]

3_ عمر بن حسن بن علي بن دحية الكلبي (ت: 633هـ):

يعرف بابن الجميل ،أخذ عن أشياخ بلده مالقة، ورحل إلى المشرق وسكن القاهرة ، اتسعت روايته وبعد صوته، ألف "المطرب من أشعار أهل المغرب " .

4_ محمد بن أحمد بن جزي الكلبي أبو القاسم (ت: 757 هـ):

---

[1]-_ ينظر، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، حققه مصطفى السقا إبراهيم الانباري ، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة اللجنة النشر والتأليف والترجمة القاهرة ،ج1. 1939.ص:222.

[2]-_ ينظر، المقري، النفح. المصدر السابق ج2، ص:283

نبغ في علوم عدة، وألف في الفقه وعلوم أخرى كما نبغ في الشعر، ذكر شعره ابن الخطيب والمقري.[1]

5_ يوسف بن موسى بن سليمان بن أحمد المنشتاقري أبو الحجاج (ت: 784هـ).

أديب ذاكر الأخبار، يكتب ويشعر من تآليفه: "النفحات الرندية واللمحات الزندية" و"الاستشفاء بالعدة الاستشعاع بالعمدة في تخميس القصيدة النبوية " المسماة بالبردة، و"توجع الراثي في تنوع المراثي " و "قبول الرأي الرشيد في تخميس الوتريات النبوية لابن رشيد" و "إنتشاق النسمات النجدية واتساع الترعات الجدية".[2]

6_ محمد بن محمد بن عبد الله اللوشي اليحصي:(ت: 752 هـ):

شاعر مفلق وشهاب في البلاغة متألق كان كاتب الدولة النصرية، وشاعرا مداحا.[3]

7_يحي بن أحمد بن هذيل التجيبي أبو زكريا (ت:753 هـ):

يقون عنه المقري:" خزانة على كل فائدة مقفلة "[4]، بدع من رتب التعاليم وعلمها، وركض في الألواح قلمها ، وارتدى من البلاغة من كل مذهب و الأدب نقطة من حوضه له ديوان سماه السليمانيات والعربيات.[5]

8_ محمد بن يوسف بن محمد الصريحي ابن زمرك:(ت: 790 هـ):

---

[1] _ ينظر،المقري ، الأزهار، ج1، المصدر السابق.ص:186.

[2] _ ينظر، ابن الخطيب،لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني .الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي القاهرة،ج1،ط2، 1973،ص:377.

[3] _ ينظر،ا بن الخطيب ، المصدر السابق ، ص:389.

[4] _ المقري، النفح.ج2، المصدر السابق، ص:487.

[5] _ ينظر، المقري. المصدر نفسه، ص: 487.

أخذ العلوم في المدرسة النصرية عن ابن الخطيب الذي قال عنه:" صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها و علة من عل الذكاء، شارك في جملة من الفنون ، ثم ترقى في درجة المعرفة ، مستظهرا بفنون العربية و البيان و اللغة مصاحبا الصوفية ثم عانى الأدب و عانى الرحلة ، وترقى إلى الكتابة ".[1]

وأحذ الأدب والشعر عن أبي عبد الله اللوشي اليحصبي ومعظمه حول الحمراء، فلقب بشاعر الحمراء جمع إسماعيل بن الأحمر شعره في " البقية والمدرك من شعر ابن زمرك."[2]

وهذا الأخير سنحاول التعرف عليه أكثر من خلال هذا البحث وذلك عن أخلاقه، زمن الغربة وعودته إلى غرناطة إنتاجه الشعري ومعاداته لابن الخطيب وارتقائه منصب الوزارة .بالإضافة إلى وصفه لبعض المباني خاصة غرناطة التي هي مسقط رأسه و بعض القصور كقصر الحمراء وشنيل والمحدث و دار الملك .

ج_ صورة من فن الموشحات الأندلسية:

الموشح فن أندلسي المنشأ، له خصائص و مميزات كثيرة، خالف بها القصيدة العربية القديمة إذ له منهج خاص يتبعه الوشاح فيما يخص الإيقاع العروضي و البناء الشكلي، وفيا يلي تعريفات لكلمة "الموشح": عرفه ابن منظور" الموشح"،والوشاح،والموشحة، وديك المشوح: إذ كان خطتان كالوشاح، والموشحة :من الضباء والشاء والطير: التي لها طرتان من جانبيها"[3]

[1] _ ينظر، ابن الخطيب ،المصدر السابق،ص:301 .302.
[2] _ ينظر، المقري، أزهار ،المصدر السابق.ص:11.
[3] _ أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر.ط6، 1976. ص:302.

أما الزمخشري أشار إلى أن: " الموشح أو الموشحة :من الوشاح والوشاح: وهو حلي للنساء، أو كريمان اللؤلؤ، وجوهر منخومان مخالف يكون معطوف أحدهما على الآخر، لتزين به المرأة، أو هو سير مسوج من الجلد يرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها و كشحها، و الموشح اسم مفعول يدل على أن الناظم قد وضع منظومته على شكل الوشاح."[1]

هذه التعاريف كانت من الناحية اللغوية، أما من الناحية الاصطلاحية فقد حاول ثلث من الدارسين تعريف الموشح بمفهومات متعددة أهمها ما ذهب إليه ابن سناء الملك : الموشح بأنه كلام منظوم على وزن مخصوص و عرفه محمد بن أبي شنب فقال: " الموشح قصيدة نظمت من أجل الغناء."[2]

ومن أشكال الموشح، فإننا نجد المتبع للكتابات التي وصفت أجزاء الموشح، أن أصحابها يختلفون في المصطلحات التي يطلقونها على تلك الأجزاء، ومن تلك المصطلحات:

أـ المطلع أو المذهب:

يطلق هذا الاسم على المجموعة الأولى من الموشح وغالبا ما يكون عدد الأجزاء فيما اثنين ومن ذلك قيل ابن أزهر:

أ/ أيُّها السّاني إليك المشتَكى ب/ قد دعَوناكَ فلَم تسمعِ.

[1] _ جار الله العازم محمود بن عمر الزمخشري : أساس البلاغة، بيروت دار صادر،1965. ص: 225.
[2] _ مصطفى عوض عبد الكريم : فن التوشيح، دار الثقافة بيروت.1956،ص:18

وهذا المثال للشكل البسيط من الموشح الذي نقسم فيه المطلع إلى جزأين أ و ب وهو موشح تام حيث بدأ فيه المطلع.[1]

ب ــ الدور:

يتكون من أجزاء: وهو مجموع الأجزاء التي تلي المطلع و يبلغ عددها ثلاثة إلى خمسة أجزاء. ولا يشرط وصولها إلى عدد معين، ويشمل الدور الأول الموشح الأقرع أما في الموشح التام فالدور الأول هو خمسة

وَنديمٍ هِمتُ في غُرَّتِـــــــــــــــــهِ

وبِشُربِ الرّاحِ مِن رَاحَتِـــــــــــــــهِ

كُلّما استعض من سَكرتِـــــــــــــــه[2]

هذا الدور مكوّن من ثلاثة أجزاء ، ويرى الدكتور مصطفى عوض الكريم أن هذا التعين العددي كانت له علاقة بالحاجة الغنائية لكن يعد الانفصال الذي تم بين النظر و الموسيقى، جنح الوشاحون إلى النفس الطويل كما هو الشأن في موشحات ابن الخطيب وابن زمرك

ج ــ السّمط: كل جزء من الدور يسمى" سمطا " ويكون مقرده ، أي مكونا من فقرة واحدة كما يمكن أن يركب من فقرتين أو أكثر، كما في قول الأعمى التطلي من إحدى موشحاته، 2.

---

[1] _ مصطفى عوض عبد الكريم : فن التوشيح، دار الثقافة بيروت.1956،ص:11.

2- ينظر:مصطفى عوض الكريم، الرجع السابق.ص:21.

3- ينظر: المرجع نفسه،ص: 12.

الله ما أثربَ على مُحبّيه وأبعـــــدا

حُلوُ اللّمَى أسنبْ أسى الضّنى فيه وأسعدا

أحبِب بِه أحـــبِبْ ويَـــــا تجنّيه طالَ المدى.

وبشرط أن تتماثل جميع الأدوار في الترتيب وتتساوى في العدد.[1]

د ــ القفل ــ المركز ــ:

هو مجموعة الأجزاء تعقب الدور الأول ويشرط عدد معين من الأقفال وإن كـــان عددها في أغلب الموشحات خمسة عدا المطلع ، ويجب أن تكون الأقفال متفق في الوزن والقوافي وعدد الأجزاء .[2]

ــ بالإضافة إلى أشكال أخرى كالبيت والغص والخرجة ويشمل الموشـــح كـــذلك موضوعات عديدة نذكر منه الغزل فالموشحات الغزلية كثيرة لا تحصـــى فقـــد أجـــاد الوشّاحون في هذا الغرض، ولما كان الوشاحون في بادئ الأمر شعراء قصـــيدة غـــدت معانيهم الغزلية هي نفسها في الموشح ونفس الأمر بالتشبيه إلى الوشاحين المختصـــين في فن التوشيح ، فعواطف السوق، وإظهار اللوعة، ووصف أيام الفراق ، وتصوير الجمال ، مترددة في كل زمان ومكان وليس الاختلاف إلا في طريقة التناول، ومن تلك النمـــاذج موشح الأعمى التطيلي المشهور "ضاحك مكف جمال" وقد تفوق فيـــه عـــن بعـــض معاصريه من وشاحي الاندلس،

[1] ـ ينظر، مصطفى عوض الكريم.المرجع السابق، ص:29.
[2] ـ ينظر، مصطفى عوض الكريم. المرجع نفسه و ص:30.

فقد ذكر ابن خلدون:"أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس من الوشاحين في مجلس من مجالس اشبيلية واستحضر كل واحد منهم موشحة، وتألق فيها فتقدم الأعمى التطلي لإنشاد موشحته، وما كاد ينتهي حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته إعجابا بها".[1]كما نظموا كذلك في الرثاء والخمر ووصف الطبيعة والمدح كذلك في الهجاء الزهد والتصوف

مما سبق يتبين لنا أن البلاد الأندلسية كانت ذات بيئة حضارية تركت لنا تاريخ زاخر بالمعالم والنقوش الشعرية التي كست جدران المباني والقصور والنافورات، فهذا النقوش الشعرية أضافت جمالا على الجمال الذي تمثل في الطبيعة التي دفعت الكثير من الشعراء الأندلسيين إلى التغني بها، فتنوع شعرهم من موشحات وأزجال...

من بين الشعراء الذين تفننوا في وصف الطبيعة والعمران وبقي شعرهم إلى يومنا هذا نذكر شاعرنا الكبير، والذي احتل مكانة عظيمة عند الغني بالله إنّه الشاعر ابن زمرك، والذي سنحاول التعرف على الشيء القليل من حياته في الفصل الثاني.

[1]- ابن خلدون ابوزيد عبد الرحمان ،العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت دار الكتاب اللبناني. 1982، ص:139.

الفصل الثاني

الفصـــل الـــثاني: نبذة عن حيات الشاعر ابن زمرك الغرناطي الأندلسي.

المبحث الأول: طفولته.

أـــ إسمه.

ب_ نسبه .

المبحث الثاني: حياته.

أ ـــ نشأته.

ب ـــ تكوينه.

المبحث الثالث: آثاره.

أ ـــ سنواته الأخيرة.

ب ـــ إنتاجه الشعري.

المبحث الأول: طفولته

إسمه: من حسن الحظ أن التاريخ قد احتفظ لنا بمصدرين هامين لدراسة حياة ابن زمرك؛ فالأول يعود الفضل فيه إلى معاصره ابن الخطيب في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة"، تشمل سنوات الطفولة والشباب إلى غاية سنة سبعمائة وسبعون للهجرة وهي السنة التي انتهى فيها ابن الخطيب من تأليف كتابه و بعد سنوات عاد ابن الخطيب إلى كتابة ترجمة ثانية لهذا الشاعر في كتابه "الكتيبة الكامنة". أما المصدر الثاني فهو من تأليف الأمير بن الأحمر، وقد جاءت هذه الترجمة توطئة لديوان ابن زمرك ، تحت عنوان البقية والمدرك من شعر ابن زمرك ومن المؤسف أن هذا الديوان لم يحفظ لنا إلا أن المؤرخ ،المقري قد أورد هذه الترجمة في كتابيه: "نفح الطيب" و"أزهار الرياض "مسبوقة بترجمة ابن الخطيب في "الإحاطة". أما ابن الأحمر فقد ألف هو الآخر ترجمة ثانية لابن زمرك في كتابه " نثير فرائد الجمان".[1]

واسمه الكامل هو: محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحي يكنى أبا عبد الله و يعرف بابن زمرك ، ولقد اختلف الكثيرون حول ضبط هذا اللقب ،و حيث ورد بالحروف اللاتينية بأشكال مختلفة منها:

[1]- ينظر: حمدان حجاجي : حياة و اثر ابن زمرك، شاعر الحمراء. ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية بن عكنون الجزائر،دط،ص:5.

"ZAMRK" في مجلة الأندلس، مجلد 24 ص:406. و"ZUMRUK " في مجلة أسبيريس، مجلد 43،ص:354.و كذلك : "ZEMREK" في جورنال أزياتيك مجلد، 12،ص:444.

إلا أنه يمكن التوصل إلى ضبطه بشكل صحيح ، حيث نعرف أن السلطان يوسف الثالث ابن الأحمر قد ألف كتابا جمع فيه أشعار ابن زمرك وسماه " البقية المدرك "البقية و المدرك من شعر ابن زمرك" و يتضح من هذا العنوان وجوب فتح ورجحان ضم الزاي تبعا لعادة المتبعة في ذلك العصر في تسجيع العناوين تسجيعا تاما.[1]

أ_ **نسبه** : أما نسبه فصريحي و هو نسب يقول عنه بن الخطيب في كتابه" الإحاطة في أخبار غرناطة" إنه شاهد على الأصالة و دليل على العروبة[2].

ولد بن زمرك في الرابع عشر من شهر شوال عام سبعمائة و ثلاثة وثلاثون، الموافق للثامن والعشرين لجوان عام ألف وثلاث مائة و ثلاثة وثلاثين للميلاد، في ربض البيازن بغرناطة[3].

أما أسرة فالمعروف عنها أنها من شرق الأندلس و شاء القدر ان تهاجر إلى غرناطة كغيرها من الأسر الإسلامية لاتقاء شر العدو المسيحي الذي استولى على أراضيها وأموالها ولا نعرف عن والديه شيئا يذكر ما عدا ما قاله بن لسان الدين بأن أبا ابن زمرك كان حمارا مكاريا حدادا بالبيازين ففكر والديه بادئ ببدء في تعليم ابنهم هذه المهنة الوضيعة ليساعدهم في حياتهم الشاقة، ولكن بن زمرك كان صبيا نحيفا لايتمتع

1-ينظر،أحمد سليم الحمصي، ديوان ابن زمرك محمد بن رية يوسف ، الصريحي الأندلسي الغرناطي، المكتبة العصرية صيدا،بيروت،ط1، 1998م،ص:08.

2- ينظر ابن الخطيب، المرجع السابق، ص 141.

3- ينظر، الديوان، المصدر السابق، ص: 9.

بصحة جيدة وهذا ما أدى بوالده إلى توجيه ابنه إلى الكتاب لعله يوفق في الدراسة فيصبح عالما وأديباً

المبحث الثاني: حياته.

أ_ تكوينه:

وهكذا التحق بن زمرك بأقرانه وتابع المناهج السائدة أنداك و الجدير بالذكر أنه أثار انتباه معلميه بما أبداه من ذكاء وجد في العمل حتى أصبح يشار إليه بالبناء فحفظ القرآن الكريم ودرس الحديث الشريف ثم النحو و اللغة و الأدب ولا سيما الشعر[1] .

يعود تكوينه في الفقه و تفسير واللغة معظمه إلى الأستاذ الشهير المفتي أبا سعيد بن لب الذي كان معظما عند الخاصة و العامة ويشهد له بالفضل أبو زكرياء السراج في فهرسته حيث يقول "قل من لم يأخذ عنه في الأندلس في وقته وله تآليف وفتوى" أما في الأصول فتجدر الإشارة بذكر الأستاذ أبا على المنصور الزواوي أما في النحو فإن الشاب بن زمرك قد درس على يد أبي عبد الله بن الفخار بغرناطة أو بمالقة — حسب ما يبدو – حيث استقر بعد استيلاء المسيحيين عبر مدينة شريش و كان بن الفخار آية في العربية و يذكر بن الخطيب في الإحاطة انه ألف عدة كتب جاء أغلبها في النحو[2].

---

[1]- ينظر، حمدان حجّاجي، شعر وموشحات الوزير ابن زمرك. ابن زمرك الأندلسي، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية ابن عكنون الجزائر، الطبعة مشتركة بين المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية ، ص:4-5.

[2]- حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك، المرجع السابق، ص:30.

أما الأستاذ الثاني في النحو والفنون اللسانية هو أبو القاسم محمد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة وتذكر المصادر أن ابن زمرك تابع دروسه سنوات عديدة وقد أدّاه إعجابه بأستاذه إلى رثائه بالقصيدة التي مطلعها " أغرى سراة الحيِّ بالأطراف"[1].

وقد كان أبو عبد الله ابن بيبش العبدري الأستاذ الثالث الذي لازمه ابن زمرك للأخذ عنه في النحو، فهذا العالم الغرناطي الأصل قد تفرغ في البداية للتدريس ثم اقتصر وعلى التجارة في الكتب ويقول في هذا الشأن ابن الخطيب :" صاحبني في بعض خطراتي في سبتة رسولاً فأعدته إلى بلده يقيم به الإقراء ".

وكان هذا العالم النحوي يتذوق الشعر ويقرضه ويبدو أنه كان يتمتع بالشهرة في هذا الفن[2].

فبعدما تضلع ابن زمرك في النحو واللغة ألتفت إلى علم الحديث فكان أول من لقّنه مبادئ هذه المادة هو أبو البركات ابن الحجاج الذي نشأ بالمرينية وأقام بمالقة وبجاية وفاس ثم عاد إلى مسقط رأسه حيث تولى القضاء ومن بين أساتذة ابن زمرك الخطيب أبا عبد الله ابن مرزوق التلمساني تفرغ لتدريس الحديث ومناهج الصوفية مغتنماً الفرصة لربط علاقات وثيقة مع المريني أبا سالم الذي نفي هو الآخر إلى الأندلس بعد وفاه أبي الحسن[3].

ب_ **نشأته** : وهكذا تأتى لابن زمرك" في العشرين من عمره أن يتردَّد على هذا العلامة لمدة سنة وهو مهتديً به في فن الخطبة وعلم التصوف فنشأت بين الرجلين مودَّة

---

[1]- المقري، أزهار الرياض، ج2، المصدر السابق، ص:14.

[2]- ينظر، حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك، المرجع السابق، ص:31.

[3]- ينظر، ابن خلدون المقدمة، المصدر السابق، ص: 635.

سمح لابن مرزوق أن يطلب من تلميذه نظم قصيدة يمدح فيها كتاب الشفاء للقاضي عيَّاض وبالتالي مدح شارحه وهو ابن مرزوق نفسه في قصيده تضمنت نحو عشرين بيتاً[1].

يقول في حقه شاعرنا ابن زمرك:

لقد حُزتَ فضلاً يا أبَا الفَضلِ شاملاً فيجزيكَ عن نُصح البَرايا شفيعُها

ولله مِمَّـــن قد تصدّى لشرحـــه فلبَّاه مِن غرَّ المعاني مُطيعُهـــــــا

فكم مُجملٍ فَصَّلتَ مِنه وحكمةٍ إذا كتَمَ الإدماجَ منه تشييعُهـــــا.[2]

كما أن إتمام ابن زمرك بالتصوف أدَّاه إلى التردّد على أكبر ممثلي هذا العلم أمثال أبي جعفر بن الزيات وأخيه المهدي وبالأخص أبي عبد الله المقري جدَّ مؤلّف " نفح الطيب" الذي تولى القضاء سنة ألف وثلاثمائة وسبع وأربعون ميلادي في عهد المريني أبا عنَّان، وقد قام برحلة إلى الأندلس قاصداً الملك النصري سنة ألف وثلاثمائة وستة وخمسون وأثناء إقامته تعاطى التدريس وقد أصغى إليه الكثير، فكان ابن زمرك من بين تلامذته[3].

وأما تكوين ابن زمرك في الأدب فإنه يرجع إلى الأساتذة السابق ذكرهم وإلى أدباء وشعراء عصره الذين تفطّنوا لذكائه ومواهبه في هذا الفن ونُخص بالذكر أبا عبد الله اللوشي، وكذلك ابن خطيب الذي لم يفته أن ينتمي إلى ذكاء تلميذه ومواهبه الفطرية

---

[1]- حمدان حجاجي، المرجع السابق، ص:33.
[2]- الديوان، ص:97.
[3]- المقري، نفح الطيب، ج 2، المصدر السابق، ص : 340.

يقول في حقّه:" هو الفاضل صدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجبائها ... شعلةٌ من شعل الذكاء ... ثقيب الذهن أصيل الحفظ... بعيد مدى الإدراك جيِّد الفهم..."[1].

أما شاعرنا فقد كان له ردٌّ اتجاه ابن الخطيب واعترافه لأستاذه مغتنماً كل الفرص لمدحه وشكره على كل ما فعل مبدياً في ذلك تواضعاً كبيراً وقد تأتى له أن يقول في حقّه:

وبوَّأتَني مِن ذِروة العِزِّ مُعتَلـى وشرَّفتَني مِن حيـــث أَدري ولا أَدري

وسوَّغتني الآمالَ عذباً مُسلسَلا وأسميتَ مِن ذكري ورفعت من قدري

فدَهريَ عيـــدٌ بالسّرور وبالمنى وكلّ لَيالي العُمرِ لِي ليـــلةُ القَدرِ

فأصبحتُ مَغبوطاً على خيرِ نعمةٍ يقِلُّ لأَدنَاها الكثيـــــر مِن الشُّكرِ.[2]

إن ابن زمرك كان يتمتع بشخصية غنية جذابة وإنه كان يتميز فضلاً عن مواهبه العلمية وعبقريته الشعرية بالأخلاق المحمودة واللياقة وحسن المعاشرة، وأن ابن الخطيب وابن الأحمر متفقان على الاعتراف له بالفضل وانشراح الصدر وعذوبة الحديث ولطافة السلوك كل ما كان يثير إعجاب من يخالطه وينادمه بحيث أصبح من أولئك الذين يطيب البقاء برفقتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يشهد له بالتقوى والتمسك بالدين فكان يعد من الذين إذا ذُكر اسم الله أمامهم فاضت أعينهم دموعاً ومن الذين يتصبَّب جبينهم عرقاً إذا استمعوا للموعظة[3].

---

[1]- ابن خطيب، ج2، المصدر السابق، ص : 221.
[2]- الديوان، ص:51.
[3]- ينظر، المقري، أزهار الرياض، ج2، المصدر السابق، ص:15.

كان يفضل أن يقضي معظم أوقاته مع الصالحين الأتقياء وهذا ما أكد عليه ابن الخطيب على عِفَّته وصفاء سريرته وجاء صدى لهذا القول ما صرَّح به ابن زمرك لنفسه في أبياتٍ إذ قال مفتخراً:

لقـــد عَلِمَ الله أنِّي امرؤٌ أُجَرِّر ذَيلَ العَفافِ القَشِيـــبْ

فكَم غَمض الدّهرُ أجفانَهُ وفازَت قِداحي بِوَصلِ الحَبِيـــبْ

وقيـــلَ رَقِيـــبُك في غَفلةٍ فقُلتُ: أَخاف الإلَهَ الرَّقِيـــــبْ.[1]

لقد لقي ابن زمرك هكذا مؤدياً مهمته على أحسن وجه مغتنماً كل الفرص للتعبير شعراً عن اعترافه للمحسنين غليه وقد ورد في ما تبقى من إنتاجه شواهد عديدة على ذلك إلى أن طرأت حوادث قلبت الأوضاع رأساً على عقب ، ونشير إلى عودة ابن سالم إلى فاس وارتقاءه على العرش لمساعدة ابن مرزوق التلمساني، وإلى ثورة بلاطية تمت بخلع الغني بالله الذي لم يرى السلامة بنفسه إلاَّ بمغادرة غرناطة واللجوء إلى فاس وكان ذلك في ذي الحجة عام سبعمائة وستون هجري[2].

والجدير بالذكر أن صاحبنا ابن زمرك انضم هو الآخر إلى المركبة في رحلته إلى فاس مغادراً هو الآخر وطنه" غرناطة" ، ولقد خصَّص البلاط المرين استقبالاً حافلاً للاجئين في اليوم السادس من شهر محرم الموافق للثامن والعشرين من نوفمبر.[3]

ويذكر ابن خلدون اليوم العظيم عمَّا شاهد بنفسه فقال:" ثم انفضَّ المجلس وانصرف ابن الأحمر إلى نزله وقد فرشت له القصور وقربت الجيَّاد بالمراكب الذهبية وبعث إليه

---

[1]- الديوان، ص:19.

[2]- ينظر، حمدان حجاجي، شعر وموشحات الوزير ابن زمرك، المرجع السابق، ص:5.

[3]- ابن خطيب، المصدر السابق، ص:18.

بالكسي الفاخرة، ورتّبت الجاريات له ولمواليه من المعلوجي وبطانته من الصنائع والخفض عليه رسم سلطانه في الموكب والرجل، لم يفقد من ألقاب ملكه إلاّ الآلة أدباً مع السلطان". فسكن الملك المخلوع في القصر الرائع في مدينة فاس وبقي منتظراً ما سيأتيه به القدر ليخفّف عنه من هاته المحنة الأليمة، وأما ابن الخطيب فقد رأى من اللائق له أن يتجول عبر المملكة المرينية ويزور آثار الملوك القدماء فغادر إلى مدينة فاس بعدما استأذن الغني بالله ولم انتهى من رحلته قادته قدماه إلى مدينة سلا واستقر بها[1].

وأما ابن زمرك فماذا كان مصيره آنذاك؟ غنه قد وجد بفاس من كان يضمر له مودَّة وصدافة خاصة واستغل علاقته مع الخطيب ابن مرزوق ذلك العالم الذي اهتدى به في علم التصوف مقيماً بالأندلس وهذا الأخير كان يحظى بمنزلة عليا في أبي سالم للدور الذي لعبه في فائدة هذا الأخير، ويصف لنا ابن الأحمر الملاقاة بين الرجلين مبيّناً ما كان يضمره ابن مرزوق لتلميذه من محبة وإجلال إذ أهدى إليه عمامة بها أصبح ابن زمرك معدوداً في صفوف الأساتذة والعلماء والقضاة[2].

وهذه الهدية القيمة أنطقت شاعرنا ببيتين مدَح بهما شيخَه فقال:

توَّجتَني بعمـــامةٍ تُوِّجت تـــــاجَ الكَرامَة

فرَوضُ حَمدِكَ يزدَهي مِنّي بِسَجع الحَمامة.[3]

ومن جهة أخرى فإن ابن زمرك لم يكن مجهولاً لدى الملك المريني وقت ما كان لاجئاً بغرناطة ألم يكن كاتباً له؟ فلا غرابة أن نجد شاعرنا في البلاط مع المقربين فتأتى له

---

[1]- حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك، المرجع السابق، ص:37-38.
[2]- ابن الخطيب، المصدر السابق، ص:142.
[3]- المقري، أزهار الرياض، المصدر السابق، ص:15.

هكذا وأن يشارك في جميع الاحتفالات والاستقبالات ومن بين هذا ينبغي أن نخص بالذكر استقبال الوفد الحبشي الذي قصد أبا سالم لتقديم هدايا له من قبل ملكهم ومن بين تلك الهدايا (زرافة) استغربها الحاضرون فطلب الملك المريني من الشعراء أن يرتجلوا قصيدة يصفون فيها هذا الحيوان الغريب، وهذا ما أدى ابن زمرك إلى وصف الزرافة مغتنماً هذه الفرصة لمدح أبي سالم فجاءت القصيدة في سبع وعشرين بيتاً من الطراز الأول، والتي قال في حقّها ابن الخطيب أنها (بديعة)[1]، هذا مطلعها:

لَولا تَأَلُّق بَـــــــارِقِ التَّذكَارِ مَا صَاب وَكفُ دمعي المِدْرارِ

لكنّه مَهما تَعرَّض خَافقاً فَدحَت يَدُ الأشوَاقِ زَندَ أُوَارِي[2]

لقد رأى ابن زمرك من المفيد له أثناء إقامته هذه بفاس أن يزيد في معلوماته فلازم بذلك وبصفة مستمرة العالم الشريف أبا عبد الله العلوي التلمساني فدرس عنه بعض العلوم العقلية، وقضى وقته بين أصدقائه كان بيدهم الحكم فاستمر في سلوكه معهم قاضيا وقته في التردد عليهم و في حضور حلقات الدرس لتوسع معلوماته.

وبعد سنتين أي في السابع عشر من شهر شوال سنة سبعمائة واثنين وستين شاء القدر أن يعود الملك المخلوع إلى الأندلس ، فاستقر برندة مدة ثم دخل غرناطة في شهر جمادي الثانية سنة سبعمائة وثلاثة وستين فحافظ على بن الخطيب كوزير له وعين ابن زمرك كاتب سرٍّ له.[3]

---

[1]- حمدان حجاجي، حياة واثار ابن زمرك، المرجع السابق، ص:38.

[2]- الديوان، ص:51.

[3]- ينظر. حمدان حجاجي . حياة واثر ابن زمرك .المرجع السابق، ص: 41.

وهكذا تأتى لابن زمرك و هو متوج بلقبي الرئيس و الفقيه أن يحتل في البلاط المكان الذي كان يتمنى من صغره أن يتمتع به ، فما كان حلما أصبح واقعا ، ويبدو أن قيام ابن زمرك بفاس قد ترك في نفسه آثار عميقة فعاد إلى غرناطة غنيا بذكريات عذبة ويتجلى لنا ذلك بعد سنوات في رسالة وجهها إلى ابن خلدون الذي كان مقيما آنذاك بالقاهرة فيذكره بأيام الحنان التي قضاها في الوسط المريني و الاستقبال الحافل الذي وجده ثم يخص مراسله بالذكر ليشكره على ما أحاطه به من عناية معترف له بالجميل في أبيات رقيقة غنائية فيقول.[1]

أتيتُك في عَربٍ وأَنتَ رئيسُه وبابُك للأعلام مُجتمِعُ الوَفدِ

فآنستُ حتى ما شكوتُ بِغُربةٍ ووَاليتُ حتّى لم أجِدْ مَضَضَ الفَقدِ

وعُدتُ لِقُطري شَاكِرًا ما بلوتُه مِن الخُلُقِ المَحمودِ والحَسَب العِدِّ

إلى أن أَجَزتَ البحرَ يا بحرُ نَحوَنا وزُرتَ مَزارَ الغَيثِ في عَقِبِ الجَهدِ

أَلذُّ مِن النَّعمَى على حالِ فَاقَةٍ وأَشهَى مِن الوَصلِ الهَنِيِّ على صَدِّ.[2]

واستمرت العلاقة على ما يرام بين الوزير القوي والوزير بن زمرك، وبين هذا الأخير والأمير النصري محمد الخامس ويرجع هذا إلى حسرن تصرف شاعرنا للحفاظ على هذه العلاقات إذ أنه كان يغتنم كل الفرص لإهداء هذا وذاك قصائد أو مقطوعات فيها مؤكد ما هو مدين به لهما.[3]

---

[1]- ينظر، حمدان حجاجي . شعر وموشحات الوزير ابن زمرك ، ص: 5.
[2]- الديوان ، ص:32.
[3]- ينظر، حمدان حجاجي .حياة وأثر ابن زمرك .

وإن القاضي أبا العباد أحمد بن القاسم الحسني قد أورد خبرا يبرهن على صفا الجو و التفاهم التام الحاصل بين ابن الخطيب ومقربه فقال: "حدثني شيخنا ... أن الرئيس أبا عبد الله ابن زمرك دخل على الشيخ ذى الوزارتين أبا عبد الله ابن الخطيب يستأذنه في جملة من المسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله ابن زمرك . قال : الشريف فأمضاها كلها له ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب: لا والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن في هذا لأنا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد." [1]

إن هذا الفضل الذي كان يتمتع به ابن زمرك قد أثار بطبيعة الحال حقد أولئك الذين لم يوفقوا مثله في سعيهم فأصبح همهم الوحيد تحطيمه بأي وسيلة كانت ويشير ابن الأحمر في أسلوب يغلب عليه الغموض أحيانا إلى ما كان يهدد ابن زمرك من طرف أعداء أقوياء مصممين على النيل منه ، فكان هذا الأخير شاعرا بالأخطار المحيطة حوله فرأى من الأليق له في ظروف كهذه أن يهتم بالتعليم فجلس أول الأمر للتدريس بمالقة ثم التحق بمسجد الحمراء حيث التف حوله للإصغاء إليه جمهور غفير ومن بين المترددين عليه الشاطبي (ت 790هـ. 1388م)، وما أدراك من هو فإنه يطلعنا في كتابه "الإشارات والإفادات" على الفنون التي يتعرض لها ابن زمرك كما يبدى مدى تضلعه في اللغة ، يقول هذا الأخير :" فأداني صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد اذكر منها ثلاثة: الفقه في اللغة و هو

[1] - المقري،نفح الطيب،ج2،المرجع السابق،ص:147.

النظر في المواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب...تحرى الألفاظ البعيدة عن طرقي الغرابة و الابتذال... اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه. [1]

و يلاحظ ابن الأحمر أن بن زمرك كان معتنيا بتفسير القرآن أكثر من اعتنائه بالفنون الأخرى فيقول: "وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه ومكان قيده وحصله أيام قراءته إقرائه فما شئت من بيان وإعجاز قرآني وآيات توحيد وإخلاص مناهج صوفية تؤذن بالخلاص يوم الأخذ بالنواصي". [2]

وقد ورد في رسالة بن زمرك إلى بن خلدون ما يؤيد قول بن الأحمر فمن بين الكتب الموجوده بالقاهره يود بن زمرك أن يحصل على كتب التفسير التي لم يطلع عليها فيطلب من مراسله العلامة الجليل: "والمرغوب من سيدي أن يبعث لي من كلام فضلاء الوقت وأشياخهم على الفاتحة إذ لا يمكن بعث تفسر كامل لان يثبت في تفسيرها ما أرجوا النفع به عند الله أن عندي التفسير الذي أوصله إلى المغرب عثمان التيجاني من تأليف الطيبي و السفر الأول من تفسير أبي حيان وملخص إعرابه وكتاب المغنى لابن هشام وسمعة عن بدأة تفسير الإمام بهاء الدين عقيل ووصلت إلي بداة من كلام أكمل الدين الأنبري رضي الله عن جميعهم ولكن لم يصف إلا البسملة، وذكر أبو حيان في صدر تفسيره أن شيخه سليمان النقيب أو أبو سليمان لا أدري الآن صنف كتابا في البيان في سفرين جعله مقدمة في كتاب تفسير الكبير فإن أمكن سيدي توجيهه ".

---

[1] - ينظر،محمد الحجاجي،حياة وآثار ابن زمرك،المرجع السابق،ص:42.

[2] - المقري، أزهر الرياض،ج2،المرجع السابق،ص:17.

وأنّ هذه الرسالة التي كتبها بن زمرك وهو في السادسة من عمره لدليل قاطع على اهتمامه المستمر طيلة حياته بالقرآن وما يساعد على تفسيره من نحو وبيان.

وأما في الميدان الأدبي فليست لدينا معلومات كافية عن الأدباء والشعراء من الشرق كان واو من الغرب الذين اقتدى بهم بن زمرك وتذوق شعرهم ورغب في مماثلتهم ماعدا بن الخطيب طبعا وشاعرا ثانيا ألا وهو مواطنه بن خفاجة فلا مجال في الشك بان بن زمرك قد تأثر تأثرا عميقا بابن الخطيب الذي كان آية في الشعر وفن التوشيح أما الثاني فيبدو أن بن زمرك كان معجبا به إلى حد بعيد.[1]

المبحث الثالث: آثاره.

أ_سنواته الأخيرة

إن ابن الحجاج – حسب ما يبدو– لم يشعر نحو ابن زمرك بما كان يشعر به أبوه فترك نداء شاعرنا بدون صدى فأدرك عندئذ ابن زمرك أن وقت المحنة قد حان،وبالفعل فإنه عزل وزج به في السجن إرضاء للعدد العديد من الأعداء الذين كانوا في انتظار هذه الساعة بفارغ الصبر،فمكث عشرين شهرا بمعتقل(ألميرية) متذوقا ما أذاقه الغير من حرمان متأملا تقلبات الدهر مستخلصا بأنه لا شيئا يدوم في هذه الدار الفانية. فالوسيلة الوحيدة التي كانت لديه هي استعطاف أبي الحجاج فكتب هذا الأخير من السجن بأبيات قال فيها:[2]

بِما حُزتَ مِن كَرَمِ الخِلالِ بِمـــا أدركتَ مِن رُتَبِ الجَلالِ

1-ينظر،حمدانحجاجي،حياة آثار بن زمرك،المرجع السابق،ص:42-43.
1-ينظر،حمدانحجاجي،حياة آثار بن زمرك،المرجع السابق،ص:54.

بما خُوِّلتَ مِن دِينٍ ودُنيـــــا بما قَد حُزتَ مِن شَرفِ المعالي

بما أُوتيتَ مِن صُنعٍ جَميلٍ يُطابِق لفظُه مَعنى الكَمـــــال

تَغَمّدني بِفضلِك واعتَفِرها ذُنوبًا في الفِعالِ وفي المقـــــال.[1]

فهذه الأبيات المعدودة قد استلفت نظر أبي الحجاج فوقعت منه موقع الرضا بعدما تأمل هذا النداء نداء الرجل أصبح وحيدا منعزلا في غياهب السجن وقد تجاوز الستين من العمر، فأمر الملك الغرناطي بالإفراج عنه وإطلاق صراحه في الفاتح من رمضان سنة سبع وأربع وتسعون وأكثر من ذلك فقد أعاده إلى منصبه و هذا ما لم يكن متوقعا فماذا دفع أبي الحجاج إلى تعيينه وزيرا؟ هل أصبح في حاجة إليهفي خبرته وعلاقاته مع الدول المجاورة؟ أتغيّرت الوضعية السياسية؟، فمهما كان الأمر فإن ابن زمرك لم يسعد بهذه المنزلة إلا أياما قلائل حتى فوجئ لسوء حظه بوفاة أبي الحجاج.

ولم ينته شهر رمضان حتى كانت محنته الثانية، إذ عُزل عن الوزارة مرة أخرى إلا أنّه لم يُسجن، فالخليفة الجديد محمد السابع قد دعا ابن عاصم إلى منصب الوزارة ـــ و لكن سرعان ما تغيرت الأوضاع ففعل محمد السابع ما فعله أبو الحجاج و دعا بدوره ابن زمرك للوزارة في محل ابن عاصم وذلك سنة سبعمائة وخمسة وتسعون هجري الموافق لـــ ألف وثلاثمائة وثلاثة وتسعون ميلادي .[2]

فهذا الرجل الذي عاد إلى الوزارة قد بدا للناس بصورة غير مألوفة لم يكن لهم عهد بها منذ زمن طويل فما سبب هذا التغير؟

2- الديوان،ص:105.

[2]- ينظر، حمدان حجاجي .حياة وأثر ابن زمرك. المرجع السابق. ص:54.

ممّا لاشك فيه هو أن ابن زمرك أدرك ـــ بعد المحن التي عاشها ـــ أن الأصلح له أن يسلك في الحياة سلوكا يسمح له باستعادة ثقة غيره به حتى يأنس به كل من كان في جواره . فأبدى التواضع وحسن المعاملة و الرزانة في أقواله وأفعاله و لم يفت مترجمه ابن الأحمر أن يشير إلى هذا الجانب غير المتوقع فقال:"ثم رد ابن زمرك إلى خطته وقد دمثت بعض أخلاقه و خمدت شراسته وحلى بعض مذاقه".[1]

لكن فما تعوّد عليه وزيرنا من خلال السّنين الطوال قد يصعب، بل يستحيل، أن تمحوه أشهر قلائل، وبما أن العادة هي طبيعة ثانية كما يقال فإن ابن زمرك لم يثبت على هذا الحال وعاد من حيث لا يشعر إلى ما كان عليه سابقا في عهد الغني بالله مثيرا مره أخرى تحفظ من كان حوله فاتقوا شره و عدوانه في سلوكهم ولكن ما فات ابن زمرك هو أن محمد السابع ليس هو الغني بالله وأن التاريخ لا يتكرر مهما كان الأمر ، فالوقت الذي كان يفعل فيه ما شاء عادلا أو ظالما بدون أن يحاسب قد مضى و انقضى ، وبالفعل فإن ابن زمرك قد أصبح في ظروف قد تغيرت رأسا على عقب ، فإنه ليس بذلك الشاب صاحب الفكر الوقاد وإنما هو في عهد الشيخوخة إذ ناهز الستين من عمره معانيا من الأمراض العادية الناتجة عن سنه مع العلم أنه لم يكن يتمتع بصحة جيدة منذ صغره.[2]

وفضلا عن هذا فإن الصّمم الذي أصيب به قد زاد في انعزاله ودعاه إلى التشكّك في كل ما يريد معتبرا الجميع أعداء له. فعاملهم معاملة سيئة كأنهم مسؤولون عما هو عليه فلم يخف أمامهم رغبة الانتقام منهم. ونعود مرة أخرى إلى ابن الأحمر الذي وصف

---

[1]- المقري، النفح ، ج2، المصدر السابق، ص: 145.
[2]- ينظر ، حمدان حجاجي ، حياة وأثر ابن زمرك .المرجع السابق، ص: 55.

لنا ما طرأ على ابن زمرك من تغيير فيقول :"فما كان إلا كلا و ليت وإذا به قد ساء مشهدا وعيبا وأوسع الضمائر شكا وريبا وعلت الإحن عليه وعلت مراجلها لدبه فصار يتقلب على جمر الغضا ويتبرم بالقضى ويظهر النصح وفي طيه التشفّي ويسم نفسه بالصلاح ويعلن بالخشوع ويشير بأنه الناصح الأمين ويتلو قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لا تُحِبُّون النَّاصِحِين﴾[1]

ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبا لم يقترفوها ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها وأنهم إحتجنوا الأموال وأساءوا الأعمال...هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية".[2]

فضاقت الصدور بهذا الاعتداءات المتوالية والتهم بدون دلائل مما جعل الملك الغرناطي يولي أذنا صاغية للمشتكين حتى خامره الشك هو بنفسه فيما يصدر عن وزيره ، فتشجع أعداء ابن زمرك في السعاية به حتى توصلوا إلى أن يفقد محمد السابع الثقة به وذلك من الوقت الذي شعر فيه بأن ابن زمرك يكيد لهم و يتآمر عليه ، وهذا ما يعتبر من الكبائر التي لا تغتفر، فبارتكابها قد قضى وزيرنا على نفسه.[3]

وبالفعل فإنه لم تمر إلا أيام قلائل حتى فوجئ ابن زمرك وهو ببيته نيلا بين أهله برواد الملك الغرناطي ، ولنترك الكلمة لابن الأحمر الذي روى لنا هذه الحادثة بتفصيل فقال:" فهلك في جنح الليل في جوف داره على يد مخدومه تلقاه ـــ زعموا ـــ عند الدخول عليه وهو بالمصحف رافع يديه فجدلته السيوف وتناولته حتى قضي عليه وعلى

---

[1]- سورة الأعراف: الآية (79).
[2]- حمدان حجاجي ، حياة وأثر ابن زمرك المرجع السابق ، ص: 56.
[3]- ينظر حمدان حجاجي، المرجع نفسه .ص: 57.

من وجد من خدامه وابنيه كل ذلك بمرأى عين من أهله وبناته و لم يتقوا الله فيه حق تقاته فكانت أنكى الفجائع وأفظع الوقائع."[1]

فهذا الفعل الوحشي قد تم بعد عام سبعمائة وخمسة وتسعين على حد تعبير المقري في تاريخ غير مضبوط بدقة.وهذه النهاية المؤلمة تذكرنا حتما بما حدث تسعة عشر عاما من قبل لسان الدين ابن الخطيب.ولقد رأى أتباع هذا الأخير في ذلك يد الله تعالى الساهر على حقوق عباده فمن قتل ومن عمل مثقال ل ذره شرا يره فهذا ما كان في حق بن زمرك الذي دين كما يدان ويذهب المقري إلى المقارنة بين ظروف وفاة هذا وذاك بقول :"وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زمرك وقتله على الوجه الذي يعلم منه لسان الدين ابن الخطيب لديه لايترك بل قتله أفظع من قتله لسان الدين لأن هذا قتل بين عياله وأهله وقتل معه ابناه وكمن وجد من خدمه ولسان الدين رحمه الله لحق بمفرده و عند الله تجتمع الخصوم وهو العفو الغفور."[2]

---

[1]-المقري نفح الطيب ،ج2،المصدر السابق،ص:170.

[2]-ينظر، حمدان حجاجي،حياة و آثار بن زمرك،المرجع السابق،ص:58،

ب_ إنتاجه الشعري:

لقد اهتم المؤرخ ابن الأحمر بعد وفاة ابن زمرك بجمع ما خلّفه هذا الأخير من آثارٍ، رغبةً منه في تخليد ما قيل عن آثار الدولة النّصرية بصفة عامة وجده الغني بالله بصفة خاصة،وكذا توفر لديه ديوان ضخم سماه:"البقية والمدرك من شعر ابن زمرك ."فالبقية على حد تعبيره قلما بقي بعد هلاله وتخطته الحوادث وشح الدهر بإمساكه ،والمدرك لأجل ما ترك في مبيضا ته و لم يخرجه في حياته. وهذا الديوان الذي اطلع عليه المقري يتلمسان ووصفه بالضخم لم يعثر عليه بعد ولكن من حسن الحظ فان كمية وافرة احتفظت لنا في كتب التراجم ولا سيما في كتاب المقري نفسه "نفح الطيب ،أزهار الرياض ،مع إضافة موشحات وقطع شعرية.[1]

إنّ المصادر التي رجعنا إليها تنحصر في ثلاث ذات أهمية كبرى وهي "أزهار الرياض" و"نفح الطيب" للمقرّي و"الإحاطة" لابن الخطيب.

وإذا عدنا إلى هذا الديوان ن الضخم لاحظنا أن ابن زمرك قد تعرض إلى جميع الأغراض المعروفة في الشعر العربي وكان الإطار لصياغتها القصيدة بمراحلها المعهود ،من جهة و الموشحة من جهة بقوانينها من جهة أخرى وان ترك وان القسط الأوفر من شعر ابن زمرك جاء في المدح وهذا مما لا غرابة فيه و نضيف إلى هذه القصائد قصائد سميت بالمولديّات حيث الممدوح فيها النبي صلى الله عليه وسلم النوع الشعري حديث العهد بالنسبة للألوان الأخرى إذ لم يظهر إلا في بداية القرن السابع الهجري.[2]

---

[1]- حمدان حجاجي،المرجع السابق،ص:60.

[2]ينظر، حمدان حجاجي،شعر وموشحات بن زمرك،المرجع السابق،ص :08.

وفي النهاية يسوغ لنا أن نلاحظ أن ابن زمرك لم يكن ذلك الوزير المعاصر والسياسي الظافر فحسب، وإنما كان أيضا ذلك الشاعر البليغ والموشّح الموفق بأتم معنى الكلمة، إلاأنّه ينبغي أن نميِّز بين المدح والوصف للطبيعة، فإنّ الأول يبعث في النفس السآمة،وأمّا الثاني فيملأ النفس طربا وغبطة.ويعود هذا إلى أن الغاية من المدح أن يرضي غيره، وأما الغاية من الوصف فأن يرضي نفسه. وبالتالي فالشاعر المقيّد ليس كالشاعر الحرّ، فهذا مقلّد وذاك مبدع.

ولو اقتصر ابن زمرك على المدح لما استحق اهتمام الباحثين، ولكن من حسن الحظ فإنه قد خلّف لنا شعرا من طرازا آخر اهتم فيه بوصف الطبيعة والعمران، برهَن فيه على براعته كما تمتع بالشهرة وبُعد الصّيت وهو لازال على قيد الحياة.وأيّ شاعر حظِي بما حظي به ابن زمرك؟ ألم يُرَ شعرُه كاسيًا الخلع الفاخرة وجدران الحمراء الخالدة؟

ومن الإنصاف أن نقول أن شهرته غير مغتصبة ومكانته قديما وحديثا مرموقة إلا أن معه غابت شمس الأندلس وهذا المستشرق الشهير "غاريه غومات" يأتي بالخاتمة حين يقول: "أن ابن زمرك كان آخر شاعر عظيم في الأندلس، ومعه احتضرالشعر الأندلسي مجهَدًا عبر القرون، وكان هذا الاحتضار موآكبا لاحتضار كل المظاهر الإبداع في الفكر الإسلامي".[1]

ممّا سبق يتسم لنا أن الشاعر ابن زمرك ومن عاصره من كبار الشعراء الأندلسيين، حين نقشت أشعارهم على القصور، والآثار والطاقات والمحلات العامة وتلك ظاهرة فيها من الدلالات الثقافية و الاجتماعية و الفنية ما يجعلها في حاجة إلى تأمل وتفكر، وما

[1]- حمدان حجاجي،المرجع نفسه،ص:10.

أحوجنا إلى معرفة الدوافع التي جعلت من النقش الشعري يصل إلى ما وصل إليه في تلك الفترة من حياة العصر الغرناطي.

تناول ابن زمرك أشعاره التي شكلت ظاهرة نقشية فنية وموضوعات عدة، كان أبرزها المدح والوصف والفخر، إلى جانب أغراض أخرى كالشكر والتهنئة وغيرها، ذلك أن تلك الأغراض تنسجم في مضامينها والبيئة التي ألفها الحكام والسلاطين في بيوتهم وقصورهم.

وستتركّز الدراسة في الفصل الثالث على الوصف كغرض أساسي أما باقي الأغراض فقد تكون عارضة، أو تكون في إطار عرض الوصف. وغالبا ما ينظر الشعراء إلى تلك الأغراض بوصفها كلا واحدا تضافرت على بنائه جزئيات شتى.

الفصل الثالث

الفصـــل الثالث:

جمالية شعر ابن زمرك في الوصف الحضاري

المبحث الأول: وصف المدن.

أ- غرناطة.

ب- مالقة.

المبحث الثاني: وصف المباني.

أ- المشور.

ب- قصر شنيل .

جـــ- المحدث.

د- الحمراء.

المبحث الثالث: ـــ شعر النقوش عند ابن زمرك.

ـــ دراسة موضوعية.

المبحث الأول:

وصف مدينتي "مالَقَة" و"غرناطة"

أ_ وصف غرناطة:

تقع في جنوب مملكة قشتالة، وتفتح على البحر الأبيض المتوسط من مضيق جبل طارق ورُندة، الواقعتين على الحدود الطبيعية التي تكونها الجبال العالية، وإن غرناطة عاصمة المملكة تنصب على ستمائة متر علوا في أسفل الجانب الشمالي الغربي لجبل"السِيِيرا نيفادا" المعروف بجبل الثلج.

إن جميع المؤرخين و الجغرافيين وبالأحرى الشعراء الذين كانت لهم صلة بإسبانيا الإسلامية قد أثنوا على غرناطة وعبروا عن إعجابهم بجمالها، مشيرين إلى ثرواتها وخصوبة سهولها وكثرة مياهها واعتدال جوّها.[1]

ومن بين الشعراء الذين انبهروا بجمالها صاحبنا ابن زمرك انه قد أحب غرناطة مسقط رأسه حبا جما، فكانت علاقته بها علاقة عاشق بمعشوقته، وهذا ما أداه إلى مشاهد شيقة زاهرة بألوان رائعة، فلا غرو إذن أن احتلت هذه المدينة في شعره مكانة مرموقة عرفنا بغرناطة من خلال عواطفه . إن هذه المدينة التي شاهدت ولادته وسمحت له بأن يتخطى الحواجز القائمة في سبيل المجد لهي في عينه رمز العظمة والجلال النصري فبها شب وترعرع وسما إلى أعلى المناصب في ظل ممدوحه الغنيّ بالله. عاملها معاملة

[1]ـ ينظر حمدان حجاجي، حياة وأثر ابن زمرك الرجع السابق.ص:11.

المعترف بفضلها و بما منت عليه من خيرات فباح لها بمشاعره في حب وحنان يشبه حب و حنان مجنون لحبيبته ليلى فكان غيورا عليها لا يرضى لأحد أن يفوه فيها بما لا يرضى.

والدليل أنه كلما ورد الكلام عنها كان ذلك عن طريق التشخيص فوصفها بما توصف به الفتاة العذراء ، ولقد اختار ابن زمرك الموشحة إطارا لها وذلك ربما ليتغنى بها غيره عبر الأجيال حتى لا تنسى ولا يغفل عن محاسنها ضامنا هكذا لها البقاء و الخلود.[1]

لعل ابن زمرك وجد نفسه في جرح عندما مدح ووصف غرناطة إذ بها كان ممدوحه المعظم فكيف العمل إذن. فلقد رأى شاعرنا أن الاختيار بين هذا وتلك لا تردد فيه فمصلحته تغلبت لا محال على عواطفه وجعل غرناطة مدينة للغني بالله فما هي عليه إلا بإرادة هذا الأخير ولكن هذا لا يمنعنا من استخلاص صورة غرناطة حسبما رسمها في لمحات متوالية فقال:[2]

غَرناطةُ مَترلُ الحَبـــــــيبِ وقُربُها السُّؤلُ والوَطَــرْ

تُبهرُ بالمَنظرِ العَجـــــيب فلا عَدا رَبعَـــــا المَطــرْ.

عَروسةٌ تاجُها السّبـــكَــة وزَهرُهـــــا الحَليُ والحُلَلْ

لَم تَرضَ مِن عِزِّها شَريكَة بِحُسنِه يُضربُ المَثـــــــلْ

أَيَّدها اللهُ مِـــن مَلـــيـــكَة تَمَلَّكها أشرفَ الـــــدُّولْ

---

[1] ــ ينظر حمدان حجاجي، المرجع نفسه.ص: 193.

[2] ــ حمدان حجاجي ، حياة و اثر ابن زمرك، المرجع السابق.ص:194.

بِدولة المُرتَجَى المَهـــيـــبِ المَلكِ الطَّـــــاهِرِ الأَغَرّْ

تَختالُ مِن بُردِها القَشِيب في حُلّة النُّـــور والزَّهَـــرْ

كُرسِيُّها جَنَّة العَريـــــــــف مِرآتها صفحـــــــة الغَدَر.[1]

وإن العيشة رغدة بغرناطة إذ يخيم عليها الهدوء والطمأنينة والمرح ويود ابن زمرك ان تلبي دعوته فيقول:

غَرناطةُ آنسَ الرّحمنُ سَاكِنَها بَاحَت بِسِرّ مَعَانيها أغانيها

فخَلّد الله أيّامَ السّـــرور بها صُفرًا عِيشَتُها بيضًا لَيَاليها.[2]

ويأتي ابن زمرك هو الآخر ـــ بعد ما سبقه إلى ذلك ابن خفاجة ـــ إلى تشبيه غرناطة بالجنة . فيقول مخاطبا سكانها:[3]

يا سَاكِنِيْ جَنّة العَريـــف أُسكِنتُم جَنّة الخُلـــــــدِ

كم ثَمّ مِن مَنظرٍ شَريف قَد حُفّ باليُمنِ والسُّعـــودِ

ورُبَّ طَودٍ به مَنيـــــفِ أَدوَاحُه الخُضرُ كالبُنـــــــــودِ

والنّهر قَد سُلّ كالحُسَامِ رَاحَة الشّرب المُستـــــــلئم

---

[1]ـــ الديوان المصدر السابق.ص:169.

[2]ـــ الديوان المصدر نفسه.ص:122.

[3]ـــ ينظر حمدان حجاجي .حياة واثر ابن زمرك ،المرجع السابق .ص:195.

والزَّهر قد راق بابتسام مُقبِلا راحَة النّديـــــــــــم.[1]

ويبقى ابن زمرك متأمِّلا في دهشة مشهدا رائعًا، تعرضه عليه غرناطة بضواحيها، مشهدا مرصّعًا بالمباني الفاخرة برمز حضارة إسلامية،أنيقة فتخالجه هذه الأفكار فيقول مبتهجا:[2]

تِلكَ القُصورُ التي رَاثت مَظاهِرُها تهوي النُّجومُ قُصورًا عن مَعاليها

لله لله عَينًا مَن رأى سَحَرًا تلك المنارةُقد رقّت حَواشيها[3]

وإنّ غرناطة لهي مهد ذكرياته الخالدة شاهدة على الآونة المرحة السعيدة التي عاشها فيذكر كل ذلك بشوق وحنان فيقول:[4]

أَبلِغ لِغرناطَةَ سَلامي وصِفْ لي عَهدَها السّـــليم

كَم بِتُّ فيها على اقتراح أعَلّ مِن خمَرةِ الرِّضَـــــاب

أُديرُ مِنهـــا كؤوسَ رَاحٍ قَد زَانت الثّغرَ بالحبَـــــاب

اختالَ كالمهر في الجِماح نَشوان في رَوضة الشّبـــاب.[5]

---

[1]ــ الديوان . ص 181.

[2]ــ ينظر حمدان حجاجي .شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الاندلسي ،المرجع السابق ص 9.

[3]ــ الديوان ص:122.

[4]ــ ينظر حمدان حجاجي ، حياة واثر ابن زمرك ،المرجع السابق .ص:195.

[5]ــ الديوان .ص:179.

ولقد لاحظنا إن ابن زمرك لم يكن مشغوفا بالأسفار فلم يغادر مدينته الا ليرحل الى مدينة فاس بالمغرب في بعثات معينة للتفاوض وحل المشاكل التي كانت تعاني منها السلطة،ولكن هذه الغيابات عن غرناطة لم تستغرق إلا أياما معدودة.

إلا أنّه حدث له أن يبقى بعيدا عن غرناطة زمنا طويلا فأصبح مثل ذلك الحبيب المحروم من رؤية الحبيبة فيبدو لنا من خلال موشحته رجلا في شقاء مرير متحسرا على مصيره وعلى ما قدره الله عليه فيقول:[1]

أَعِندَكم أَنّني بِفاسِ أُكابِدُ الشَّوقَ والحَنيـــــنْ

أَذكرُأهلي بها ونَاسِي واليوم في الطّول والسّنيـــن

اللهُ حَسبي فَكَم أُقَاسي مِن وَحشة الصّحب والبَنيـــن

مُطارِحًا سَاجِعَ الحِمَـــام شَوقًا إلى الإلفِ والحَميـــم

الدّمع قَد لجّ في انسجام وقَد وَهَى عِقدُه النَّظيـــم.[2]

ب-وصف مالقة:

إن المدينة الثانية التي لفتت نظر ابن زمرك هي "مالقة" المنتشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط والمتمتّعة بموقعها الفتّان،ولكن رغم ذلك تبقى مالقة دون غرناطة الخالدة فعلاقتُه بها ليست تلك التي كانت له بغرناطة .

---

[1]ــ ينظر،حمدان حجاجي ،حياة و اثار ابن زمرك .ص:196.

[2]ــ الديوان .ص:181.

وقد ميّز الشاعر بين المدينتين بالمرتبة، ثم بالسياق الذي ورد ذكرهما فيه. فغرناطة هي العاصمة ومقر الحكم، والسلطة، أمّا مالقة فهي مدينة ولائية فذكر الأولى لأسباب فانفردت بابن زمرك وحركت قلمه لصالحها دون أن يشاركها في استمالتها أحد، وأمّا مالقة فقد جاء ذكرها في ظروف معيّنة ولو لم تكن هذه لما ذكرها . فلا تصبح المقارنة بين هذه وتلك لتفوق إحداهما على الآخر.

وبالفعل فإن ابن زمرك اغتنم لذكر مالقة، زيارة تفقُّدية للغني بالله إلى هذه المدينة في موشّحتين في حقّها أهداهما لممدوحه.فإن ابن زمرك اكتشف للمرة الأولى هذه المدينة ورأى أنها إطار مثالي ليتم استقبال الأمير على أحسن مايُرام.[1]

وقبل أن يشرع في مدح الغنيّ بالله الذي هو أساس الموضوع بدأ بوصف مالقة وصفا كان بمثابة توطئة لموشحته، فنشر تهيأت لاستقبال هذا الزائر الجليل، فتحلت بالحلي الثمينة وارتدت بخلعها الفاخرة التي زودتها بها طبيعتها اليانعة المنورة.فاستهل ابن زمرك أسلوب التشخيص فأحيي كل مكوناتها حتى تستطيع أن تبوح بعواطفها وتعبر عن مشاعرها.وهكذا فتحت ذراعيها في وجه الغني بالله مصرحة له بحبها له، وباعترافها لما منه عليها من خيرات وشاكرة على حسن الاختيار،الذي ميّزها به عن غيرها من المدن،فهي مسرورة مفتخرة بملكها.وإنّ معظم الصور من تشبيهات واستعارات اقتبست من الطبيعة، فتظهر مالقة في عنفوان شبابها محتَفِلَة بهذا اليوم السعيد.يقول شاعرنا مخاطبا إياها:[2]

---

[1]ـــ ينظر .حمدان حجاجي ،شعر وموشحات الوزير ابن زمرك،ص:10.

[2]ـــ-ينظر،حمدان حجاجي ،حياة وأثار ابن زمرك، المرجع السابق.ص:197.

عليكِ يارِيَّةُ السّلام ولا عدا رَبعَك المطَرْ

مُذ حَلَّ في قَصرك الإمَام فَقُربُك السُّؤلُ والوَطَرْ

والدّوحُ في روضِكِ الأَنيق للشّكر قَد حَطَّت الرُّؤوس

والغُصنُ في نهرِه غَريــق وفي حُلاه كما العَروس

والجوُّ من وجهِك الشّريق تحسُده أوجُه الشُّمــوس

عروسةٌ أنتِ يــا عَقية تُجلى على مَظهرِ الكمَال

مُدَّت لكِ الكَفُّ مُستقيلَة تَمسَحُ أعطافَك الشّمــال

والبحرُ مِرآتك الصَّقيلَة تشِفُّ عن ذلك الجمــال

والحَليُ زَهرٌ لَه انتِظام يُكلِّلُ القضيبَ بالــدُّرَرْ.[1]

ويتصور ابن زمرك أهل مالقة في حيرة ودهشة أمام هذا المشهد الرائع، فنراه يحاول استفسار ذلك متسائلا عما حدث وعما سيحدث،فما من عروسة إلا وتكشف بهذه الزينة فمن هو الزوج المحظوظ السعيد الذي سيخلو بها.

وكان ابن زمرك قد توقع هذا السؤال فأعد لنا جوابا فقال:

إنْ قيلَ مَن بَعلُها المفَدّى ومَن لَه وَصلُها مُباحْ

أقول أَسنَى الملوكِ رِفدا مخلّدُ الفخرِ بالصِّفاح

[1]ـــ- الديوان .ص:174.

محمد الحمد حِين يُهدى ثناؤه عاطر الرّيـــاح.[1]

فهذا الحظ الذي تتمتع به مالقة من شأنه أن يثير الغيرة و الحسد وقد تدارك شاعرنا ذلك فأعد ما به تبعد مساوئ العين مذكرا بهذه العوائد المعمول بها في ظروف كهذه في المجتمعات الإسلامية:[2]

وأعينُ الزّهر لا تنـــام تستعذِبُ السُّهدَ و السّهَر

تَنفثُ مِن تحتِها الغَمام تُرقيكَ مِن أعيُنِ الزَّهَر.[3]

وحسب ما يبدو فإن الغني بالله قد رضي عن هذه المدينة فأراد أن يميزها عن غيرها مرة أخرى فاختارها لتكون مبنى الثانية التي أتيحت لابن زمرك أن ينظم موشحة أخرى في هذا الموضوع.فرأى أن لمالقة أن تفتخر حقا بهذه الهدية الفخمة إذ هي واعية حق الوعي بأنها انفردت به فمن الطبيعي إذا أن تبدي شكرها الجزيل فطبيعتها بما فيها تثني على الغني بالله فهذه البلابل التي تعبر عن عواطفها بأسلوب خاص . يقول شاعرنا في هذا الشأن:[4]

ورَوضةٌ بالسرّ مِنه تَبوح بلابلُ عن وَجدِه تنطِـــقُ

لو أنّ مَن يَفهَمُ عنها الكلامْ فهي تُهنِّيكَ هَناءَ الأَديـــبِ

---

[1]ـــ- الديوان .ص:174.

[2]ـــ- ينظر ،حمدان حجاجي ،الشعر وموشحات الوزير ابن زمرك المرجع السابق.ص:8.

[3]ـــ- الديوان.ص:173.

[4]ـــ ينظر حمدان حجاجي ،حياة واثار ابن زمرك المرجع السابق.ص:198.

ونهرُه قد سَلَّ منه الحُســـامْ يلحَظُه النّرجسُ لَحظَ المريبِ.[1]

المبحث الثاني:

وصف المباني

يسوغ لنا أن نعتبر ابن زمرك مبدعا في هذا المجال إذ لم يسبقه إلى ذلك غيره من الشعراء، فرأى من اللائق أن يخصص مكانا مرموقا في إنتاجه الشعري ليصف المباني التي يراها رمزا حيا يشهد على عظمة الدولة النصرية في ميدان الفن والعمران، وفي نظر ابن زمرك فإن الفضل يعود لمن أمر بإشادة هذه المباني العجيبة من الأمراء النّصريين ولا سيما الغني بالله، ومن الجدير بالذكر أن وصف هذه المباني لم يرد مستقلا وإنما ضمن قصائد مدحية مبرهنا على حسن صنع الممدوح الذي يبدو رجلا مثقفا ومتحضر يميل للفن والجمال إلى جانب ما يتمتع به من خصال أخرى، وهكذا تضمحل تلك الصورة التي يبدو فيها الممدوح في قتال وحروب مستمرة بما ينجر عنها من تخريب وخسائر فكانت هناك أوقات الهدنة والسلم اغتنمت للتشييد والبناء وهذا ما بقي دليلا إلى يومنا هذا على حضارة بلغت آنذاك أوج ازدهارها.[2]

---

[1]ـــ الديوان،ص:156.

[2]ـــ ينظر، حمدان حجاجي، حياة وآثار ابن زمرك. المرجع السابق،ص199.

ومن المباني التي استوقفت ابن زمرك نذكر:

ـ المشور:

الباقي من قصور الحمراء يطلق عليه اليوم في جملته "القصر العربي" ونحن ندخل إليه من ممرّ صغير إلى جانب قصر شارل الخامس ممرّ أشبه بالمترل يؤدي بك بعد دهليز قصير إلى أول ما تلقاه من قاعات الحمراء، قاعة المشور.

لم يكن أهل غرناطة يدخلون من هنا لأن القاعة المعروفة الآن بالمشور كانت وسط سلسلة طويلة من القاعات والأبهاء[1].

والمشور هو مبنى لا يخلو منه قصر ملكي في المغرب فهو قاعة أو قاعات كانت تخصص أول الأمر لاجتماع السلطان مع رعيته لينظر في ظلماهم، ثم أصبح بعد ذلك يخصص لاجتماع السلطان بوزرائه ورجال دولته ، وقد تم إنشاء هذه القاعة سنة ألف وثلاثمائة وخمسة وستون للميلاد.وبهذا تشهد أبيات لابن زمرك نظمها مهنئا محمد الغني بالله بالفراغ منها، إنها أجمل ما نظم شعراؤنا في وصف المباني والمنشآت إنها تناول الحمراء كلها،بأبيات تجدها منقوشة على جدار الحمراء وأعمدتها ومطلعها:

سَلْ الأُفُقَ بالأزهر الكواكب حَاليَا فإنِّي قد أودعتُه شَرَح حَالِيا

إلى أن يصل إلى وصف المشور. إلا أنه لم الوصف وإنما اكتفى بالإشارة إلى ما لا يخفى عن العين[1]،فقال:

---

[1]- حسين مؤنس،رحلة الأندلس، حديث الفردوس الموعود. الشركة العربية للطباعة و النشر. القاهرة . ط1، 1963، 183.

بِه البَهوُ قَد حازَ البهاءَ وقَد غَدَا به القصرُ آفاقَ السّماء مُباهِيـــا

وكم حُـــلّةً جلّلتــــه بحُليها مِن الوَشي تُنسِي السّابِريّ اليَمانيا

وكَم من قسي في ذُراه ترفّعـــت على عُمَدٍ بالنّور بَاتَت حَواليـــا

فتحسبها الأفلاكَ دارت قسيها يظلّ عمودُ الصّبح إذْ باتَ بَادِيا

سَوارِي قد جاءت بكلّ غريبةٍ فطارَت بها الأمثالُ تجري سَوارِيا

به المرمَرُ المجلوُّ قد شفَّ نورُه فيَجلُو مِن الظّلماء مَا كانَ دَاجِيا

إذا ما أضاءَت بالشّعاع تخالُها على عِظم الأجرَام مِنها لآلِيـــا.[2]

لقد كانت في سقف هذا القاعة قبة تقوم على عمد من المرمر في وسطها ، وكانت هذه القبة تقوم على قسي ـــ أقواس صغيرة ـــ تزينها شبابيك من الزجاج الملون، إذ نفذ منها الضوء تخيلت للإنسان أنها لآلئ ، هذه القبة قد زالت الآن، لأن الذين استولوا على الحمراء أرادوا أن يحولوا هذه القاعة غلى كنيسة صغيرة أو مصلى، أزالوا القبة وسدوا فتحتها ، و وضعوا منصة معترضة مرفوعة على عمد ليقف القص فوقها، وأزالوا كل الزليج (القاشاني) الجميل الذي كان يغطي الحائط، الأيمن إلى ارتفاع نحو متر، ثم كل النقوش التي كانت تزين ذلك الحائط وتبينوا بعد ذلك أن المكان لا يصلح للمصلى، فتركوا القاعة على هذه الهيئة الشائهة، وفي تاريخ متأخر وضعوا رنك (شارة) شارل

[1]- ينظر. حسين مؤنس. رحلة الأندلس .المرجع، نفسه ،ص:184.

[2]ـ الديوان. ص:140

الخامس على الحائط الأيمن، وفتحوا نوافذ كبيرة تطل على ما يعرف الآن ببهو "ماتشوكا".

ولازالت الناحية اليسرى من هذا المشور كما هي و بعض السقف هما كل ما بقي من هيئتها الأولى، وفي الممر الذي تخترقه في طريقك إلى المشور على اليمين محراب جميل بارع الزخرفة، هو بقية مسجد صغير كان يقوم في ذلك الموضع ومن المشور تفضي إلى قاعة صغيرة تسمى اليوم القاعة المذهبة، ويمكن الدخول إليها أيضا من خلال مدخل صغير على اليمين قبل الدخول إلى قاعة المشور.[1] ويقول كذلك :

لله مِنـــــه قُبــّةٌ مَرفوعَة دُون السّماء تَفوتُ لَحظَ الرّائِي

راقَت بدائِعُ وَشيِها فكأنَّها وَشيُ الرّبيعِ بِسَقطِ الأندَاءِ.

ج ــ قصر شنيل:

استعمل ابن زمرك هذا القصر للوصول إلى مدى الغني بالله فلم يعتبره إلا وسيلة إذ قيمته وفخامته كامنتان في الأمير النّصري الذي شرفه بزيارته فلا يتعرض شاعرنا إلى وصف هذا القصر و إنما اكتفى هنا أيضا بالإشارة إلى ما يحيط به فيخاطبه طالبا منه أن يثني على ضيفه و يعترف بفضله.[2] فيقول:

يا قصرَ"شنيل" ورَبعُك آهِلُ والرّوضُ مِنك على الجَمالِ قَد اقتَصرْ

لله بحرُك والصبلى قِد سردت مِنه دروعًا تحت أعلامِ الشّجرْ

---

[1] ــ ينظر: حسين مؤنس: رحلة الأندلس. المرجع السابق،ص:190.

[2] ــ ينظر حمدان حجاجي. حياة وآثار ابن زمرك .المرجع السابق. ص:200.

والآسي **غدراه** من حولـــــه عن كل من يهوي العِذارَ قد اعتَذرْ

قبِّلْ بثَغر الزّهر كفَّ خليـــةٍ يُغنيك صوبُ الجود منه عن المطر

وافرِشْ خدودَ الوردِ تحتَ نِعالِه واجعَلْ بها لَونَ المضاعف عن خَفَر

وانظِم غِناءَ الطّير مَدائِحًـــــا وانثُر من الزّهر الدّراهمَ والدّرَرْ.[1]

د ــ المحدث:

هذا المبنى اعتبره ابن زمرك من أفخر القصور وما استحق هذه الصفة إلا أن الغني بالله أمر بتشييده.

فيشير إليه شاعرنا وسط الرياض المحيط به فيرسم لنا هذا المشهد البديع لمدينة مالقة ومن خلال هذه الأبيات يبدو أن شاعرنا كان معجبا به ،وكيف لا وأنّ يدالفنان العربي المسلم تفننت في بنائه وأصبح اليوم من المعالم التي توحي بحضارة إسلامية زاخرة وما زال التاريخ يرسمها.[2]فيقول:

يا حبّذا مَبناك فَخرُ القصورِ بُروجُه طَالت بروجَ السّمـــَا

مَا مِثلُه في سَالفاتِ العُصورِ ولا الّذي شادَ ابنُ ماءِ السّمَا

كَم فيه مِن مَرأى بَهيجٍ ونُورِ في مُرتَقَى الجوّ به قد سَمَـــا

يَهدِيـــكَ شَملًا قد غَدا في التِئامْ مُمَهّدا في ظِلّ عَيشٍ خَصيبْ.

---

[1]ــ الديوان .ص:44.

[2]ــ ينظر، حمدان حجاجي . شعر وموشحات الوزير ابن زمرك، المرجع السابق .ص: 15.

نُواسِمُ الوَادي بِمسكٍ تَفوحُ ونَفحةُ النُّدبـــــــــــة تَعبَقُ

وبَهجةُ السكّان فيه تَلوحُ والجو ّ مِن نُـــــورهم يُشـــــرِقُ

وروضةٌ بالسرّ مِنه يَبوحُ بَـــــلابلُ عن وَجده تَنطِـــــقُ

ولا يزالُ القصرُ قصرَ السَّلام يَختالُ في بُردِ الشّباب القَشيبْ[1]

وـــ الحمراء:

مِن المستبعد أن يخصّص ابن زمرك أبياتًا لذكر الحمراء الخالدة التي تعتبر إلى حدّ الآن من أروع ما توصّل إليه الفن النّصري، وإنّ شاعرنا كان واعيا بقيمة هذا المبنى،وبمكانته عند الغرناطيين وغيرهم فجاء وصفه للحمراء بأسلوبٍ ومفرداتٍيقودنا العثور عليها في القصائد المدحية المخصّصة للغنيّ بالله ومن المعلوم أن ابن زمرك لا يفضّل بين هذا وتلك، فهما متكاملان لا يتأتّى لأيّهما أن يكون بدون وجود الآخر.

فحدث لشاعرنا أن يشاهد مشهدا رائعا تتوسّطه الحمراء، فيدعونا إلى أن نتأمل ذلك لما أثار في نفسه من إعجاب شديد لا نهائي.[2]فيقول:

وللسَّبيكَةِ تَاجٌ فَوقَ مَفرِقِها تَودُّ درّ الدّراري لو تُحلِّيهَا

فإنّ حمراءَها واللهُ يَكلؤُها يَاقوتةٌ فوق ذاكَ التّاج يُعلِيهَـــا

إنّ البُدورَ لَتيجَانٌ مُكلّلَـــةٌ جواهِرُ الشُّهبِ في أبهَى مَجالِيها

---

[1]ـــ الديوان،ص: 156.

[2]ـــ ينظر. حمدان حجاجي. حياة وآثار ابن زمرك،المرجع السابق،ص:201.

لكنّها حَسَدت تاجَ السّبيكَةِ إذْ رأت أزاهيرَه زَهرًا يُجَلِّيـــها

بروجُهـــا لبُروجِ الأُفْقِ مُخجِلَةٌ فَشُهبُها في جَمالٍ لا تُضاهِيهَا

تِلك القُصورُ التي رَاقَت مَظاهِرُها تَهوى النُّجومُ قصورًا عن مَعاليهَا.[1]

الشاعر ابن زمرك ومن عاصره من كبار الشعراء الأندلسيين، حين نقشت أشعارهم على القصور ، و الآثار و الطاقات و المحلات العامة تيمنا واستبشارا ، وتلك ظاهرة فيها من الدلالات الثقافية و الاجتماعية و الفنية ما يجعلها في حاجة إلى تأمل و تفكر ، ما أحوجنا إلى استكناه ماهيتها و معرفة الدوافع التي جعلت من النقش الشعري يصل إلى ما وصل إليه في تلك الفترة من حياة العصر الغرناطي[2]

[1]- الديوان ، ص: 122.

[2]- ينظر، حمدان دجاجي . حياة و آثار ابن زمرك. المرجع السابق. ص:.201.

المبحث الثالث: شعر النقوش عند ابن زمرك.

_ دراسة موضوعية:

شعر النقوش يعد أرضا خصبة لمعاني المديح، حيث تتلألأ عبارات الثناء في جمل مزخرفة على جدران القصور تتغنى بأمجاد هؤلاء الذين قاموا بتشييدها وإعمارها حقبة من الزمن. ويعد ابن زمرك فارس هذا الميدان، حيث أن قصائد بارزة كانت منقوشة له على جدران قصور الحمراء وملحقاتها مثل ساحة (بهو) الأختين وفناء نافورة (نبع) الأسود وطيقان أبواب مباني البيت السعيد وغيرها حيث سدل فيها الكثير من حياة الخلفاء إلى أن أصبحت تلك الأشعار جزءا من زخارف قصور بني نصر نفسها ، وهذه أبيات يمدح فيها الخليفة محمد الخامس حاكم غرناطة منقوشة في الجانب الأيمن من برطل القصر[1]. يقول فيها:

تـــبَـــارَكَ مَن وَلّاكَ أَمـــــرَ عِبادِه فأَولى بِكَ الإِسلامَ فَضلًا وأَنعمَا

فكَـــــم بَلدَةً للكُفرِ صـــبَّحتَ أَهلَها وَأَمسَيتَ في أَعمَارِهم مُتَحكِّمَا

وطوَّقتَهم طَوقَ الإِسارِ فأَصبَحوا بِبابِكَ يَبنونَ القُصـــــورَ تَخَدُّمَا

وفتَحتَ بالسّيف الجزيرَةَ عُـــــــنوَةً ففَتَحتَ بَابًا كانَ للنّصر مُبهَمـــا

ومِن قبلِها استفتحتَ عشرين ممقلا وخيّرت مـــا فِيها لجيشِكَ مَغـــنَما

فلَو خيَّرتَ الإِسلامَ فيما تريدُه لَـــمَا اختارَ إِلّا أنْ تعيشَ وتَسلَمَـــا

---

[1]- عفيف بهنسي . جماليات الفن العربي ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب الكويت. 1979م، ص: 38.

لـــــكَ اللهُ مِن قَصـــرٍ أطلَعَ الهُدى لأبصَارنَا البدرَ المنيرَ المتَمَّمَا.[1]

إن عظمة تلك القصور من عظمة أصحابها ، وتلك الحالة جعلت الشاعر يمعن في إدخال عبارات الوصف في المدح وخاصة عندما يستهل الأبيات أو يختمها، فهو في هذه الأبيات يذكر سجايا السلطان، سواء ما تعلق منها بالدين أو الدنيا فهو ناصر الإسلام وطامس الكفر بما يملكه من عزم وإرادة عبر عنها بألفاظ (السيف والفتح والقوة والمغانم والصر) [2]

لقد كان ابن زمرك شاعرا و سياسيا ، دخل معترك الوزارة بعد صراع مرير مع الأصدقاء والأعداء ، وذلك الوضع الاجتماعي أدخله في جموح الشهرة اذ الباب مفتوح كي يمدح ويفتخر باحثا عن مزيد من النفوذ لدى أصحاب القصور من الأمراء و السلاطين، كما أن طموحاته السياسية دفعته في كثير من الأحيان التملق و المصانعة، و وجعلت من فن المديح فنا رئيسا في شعره ، ويذكر إميليو غومث في هذا الشأن أن المدائح الملكية أو ما عرف بالقصائد السلطانية فازت بنصيب الأسد في شعر ابن زمرك [3].

حاول ابن زمرك وهو – شاعر القصر – إضفاء دعم معنوي لموقف مولاه (ابن نصر) فالدولة كانت تعاني اضطرابا داخليا إلى جانب تآمر الأعداء و تحينهم الفرصة للفتك بها. إن الظروف المحيطة بأرض بالأندلس دعت إلى ظهور لون من المدح لا يخلو

---

[1] محمد النيفر ، ديوان ابن زمرك ، دار الغرب الإسلامي. ط1، 1997م،ص:153.

[2] – ينظر المرجع السابق، ص:124.

[3] – ينظر، ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي ،اميليو غرسيةغومث وآخرون، ترجمة محمود مكي. القاهرة م1999.ص:83.

من جدة . فلم يعد الشعراء يستطيعون أن يتغنوا بالعصبية القبلية و لا خلاف بين قبيلة وأخرى على البسيط من الأمور وحلّ مكان ذلك التغني بجيوش الإسلام الضخمة وأمراء الجند التي تقاتل ضد القوات الصليبية التي تجمعت في الغرب، لقد اتجه الشعراء إلى إثارة الشعب كله كي يدافع عن الأندلس الجميل ،و ما الشعراء في هذه الحالة إلا أبواق إعلام تقدم و تجير ما تستطيع ، فتبسط العسير و أي مدح أو فخر يمكن أن يوجه للممدوح أفضل من أن يوصف بالمجاهد ، الذي يردف المسلمين بأبواق النصر[1]. يقول ابن زمرك داعما مولاه ابن نصر كإمام للدين والدنيا:

نَالَ ابنُ نصرٍ بِهذا القَصرِ مَا اقتَرَحا فبَابُه لِعَزيزِ النّصرِ قَد فُتِحَـــا

فانظُر لإبريـــق محرابٍ تراهُ به مِثـــلَ الإمامِ إذا صلاتَه افتتَحَا

أدامَ ربِّي لمولايَ البقَاءَ كـــمَا أدَامَ للدِّين والدُّنيا به المِنَحَـــا.[2]

إن ابن زمرك سعى بشعره النقشي إلى تحقيق وظيفة لا تخلوا أحيانا من نزعة نفعية وهي التغني مدحا بهؤلاء الأقوياء القادرين ، الذين قاموا بتشييد هذه القصور ، و لم يعدم في أثناء ذلك تحقيق أهداف ذاتية ولو على حساب الفن.

فإذا ما ذهبنا إلى موضوع الوصف نجد أنه لقي اهتمام واسعا في نقوش ابن زمرك الشعرية، و قد كان لوصف الطبيعة جانب أكبر في المناظر الطبيعية كالحدائق و الغابات ، بل دخلته مفاهيم أخرى تتعلق بما اصطنعه يد الإنسان من مظاهر حضارية كالتماثيل و

---

[1]-ينظر، جماليات الفن العربي، المرجع السابق ص:218.

[2]- الديوان المصدر السابق ، ص135.

القصور و غير ذلك، و المعروف أن الاهتمام بتلك الأمور المبتكرة لا يخلوا من تحسين لنوعية الحياة ، حيث يشبع حاله جمالية تجمع بين حاجات الفرد و مطالب البيئة.

إذا جاز لنا أن نصنف وصف القصور بزواياها الداخلية و جنباتها الخارجية ضمن أوصاف الطبيعة الصامتة ، التي يلحق بها وصف الآثار و النوافير و كل ما يتعلق بالقصور من منجزات حضارية ، يمكن القول إن ابن زمرك قد أسهم في شعره النقشي بجانب كبير من ذلك الوصف ، ذلك أنه عاش حياة القصور وسحر مفاتنها، حيث كان يتنقل بين أفنائها و أعمدتها ، وفي كل حالة كانت تغمره الطبيعة باشرا قها ، لذا جاء شعره النقشي ينبض في أغلبه بمظاهر الطبيعة .

يجاذبها الجمال بالكلمة و الإشراق بالصورة التي تتم عن تأثر الوجدان بخرير الماء الصافي الساحر تحت الأرض أو بقمر يشدو عزلته في ليلة أندلسية صافية السماء أو بأريج عطر يفوح صوب الشرقات العالية في قصور الحمراء التي غمرت الأشجار المنقوشة قاعاتها وغطت جدرانها وأعمدتها كما يذكر(فون شاك) [1].

يقول ابن زمرك في تلك المغاني التي زانت جنبات القصور فيرسمها نقشا على خصة الرخام القائمة عند نافورة الأسود فيقول:

تبَارَك مَن أَعطَى الإِمامَ مُحمّدَا مَعَانٍ زَانَت بالجمَال المغَانِيَـــا

وإلّا فهَذَا الرّوضُ فيهِ بَدائِعٌ أَبَى اللهُ أَن يُلفَى الحُســـنُ ثَانِيـــا

[1]– ينظر، صالح عبد السلام البغدادي، ابن زمرك الأندلسي حياته و أدبه. ص:79.

ومَنحُوتَةٌ مِن لُؤلؤٍ شَفَّ نُورُها تُحلّي بمُرفَضِّ الجُمَانِ النّواحِيَـــا

بِذَوبِ لُجَينٍ سَالَ بَينَ جَواهِرَ غَدا مثلَها في الحُسن أبيضَ صَافيَا

أَلَم تَر أَنّ الماءَ يجري بصَفحِها ولكنّها سَدّت عليهِ المَجَارِيَـــــا

كمِثلِ مُحِبٍّ فَاضَ بِالدّمعِ جَفنُه وغَيّضَ ذَاكَ الدّمعَ إِذْ خَافَ وَاشِيَا

وهَل هِيَ في التّحقيقِ غيرُ غَمامَةٍ تَفيضُ إلى الآسَاد مِنها السّوَاقِـــا

وقَد أشبَهَت كَفَّ الخَليفَةِ إذا غَدَت تَفيضُ إلى أُسْدِ الجِهادِ الأَيَادِيَـــا

ويَا مَن رَأَى الآسَادَ وهِيَ رَوَابِضٌ عَداهَا الحَيَا عَن أَنْ تَكونَ عَوَادِيَا.[1]

فهو يستهل بمباركة الإمام فيما حباه الله من المغاني التي ازدانت بها القصور، وعينه على الرياض والمياه والغمام ، وما تشكل لديه من معان أثيرة تتدفق فياضة في أحضان الطبيعة، لتبسط مداها في أحضان النفس.

أما تمثيله لحركة المياه وهي تندفع بين أفواه تماثيل الآساد وربطها بقوة السلطان وجولاته الجهادية التي تتجدد كتجدد المياه من أفواه الأسود وهي رابضة في قصره، في مشاهد تناغم واقع الصورة الماثلة عبر تماثيل الأسود، حاول الشاعر خلالها إيجاد رابطة فنية بين الكلمة والمشهد لتعبير عن واقع يفتح آفاقا للعبرة والتأمل.

[1]- الديوان .ص:158.

وفي جانب آخر من المشهد المحيط بالقصر تبرز الخضرة في البراعم الجديدة، وتتفتح الأزهار، وتنتشر قطرات الندى على حين يعبق نسيم الصبا بأريجه كامل الزوايا و الأنحاء، تلك المعاني وغيرها حفرها ابن زمرك بالنقش البارز على قصر الحمراء[1]. يقول:

سلامُ الله يا قصرَ السّلام على أرجَائِكَ الغُرّ الوِسَام

فكَمْ رَوضٍ بِرَوضِكَ للأمَاني يَنِمُّ بِعُرفِه زَهرُ الكمَـــام

وكَمْ غُصنٍ لِقَدٍّ ذِي قَوَام وكَمْ ثَغرٍ لِزَهرٍ ذِي ابتِسَـــام

إذا ضَحِكتْ تَغورُ الزَّهرُ فِيها تَباكى فوقَهـــا زَهرُ الغَمـــام

طالعُ مُجتَلَى نُـــورٍ ونـــورٌ تُديرُ شُمـــوسَها شمسُ المدَام.[2]

يميل الشاعر إلى التشخيص حتى لا تبدو صوره الشعرية جامدة مشلولة الحركة نجد ذلك في قوله (ضحكت ثغور الزهر، تباكى فوقها زهر الغمام، تدير شموسها شمس المدام) و تلك الحيوية التي نهض بها الشاعر في ألفاظه و صوره لا تبدو ماثلة في بعض أشعاره الأخرى.[3]

يقول في بعض نقوشه التي لا تخلو من وصف بعض مظاهر الطبيعة :

انظُرْ لرَوضٍ مُحَلَّى مِثلِ الـــعَروسِ المجَلَّى

وقبةُ الملكِ حَازَت فَوقَ النُّجـــومِ مَحَلا

---

[1]- ينظر، ابن زمرك الأندلسي ،حياته و أدبه.المرجع السابق،ص:124

[2]- الديوان . ص:134.

[3]- ينظر، ابن زمرك الأندلسي حياته وأدبه.ص:125.

رَفَعت قْوسَ سَماءٍ تَرمي مِن السّعدِ نُبلَا

ولحَت مَظهرَ حُسنٍ بِه الأَبــاريقُ تُجلَى.[1]

ومن مثله ينقش على باب البيت من القصر فيقول:

هَذِهِ الدّار جَنّةٌ للخُلودِ في سُرورٍ مُواصِلٍ وسُعــود

جُمِعَت للنّعيمِ فِيها فُنونٌ مِن ظِلالٍ تُندَى وعَذبِ بُرود.[2]

وفي الدار المناظرة لها من القصر نفسه كتب:

هَذِهِ جَنّةُ النّعيــم تجَلّت ليسَ عَنها لِسَاكنٍ مِن بَرَاح

فنُقوشِي تبدو كزهرِ رِياضِ وبَياضِي يحكِي مُحَيَّا الصّبَاحِ

وقسيّ على الأباريق تحنُو تطلبُ الوَردَ في البُرودِ القِراحِ

هكذا هكذا تكونُ المبَاني طُرُقُ الجِدِّ غيرُ طُرقِ الــمِزاحِ

وَصلَ اللهُ بابنِ نَصرٍ سُعودِي فهْوَ غَيثُ النّدَى وبَدرُ السَّماحِ.[3]

إن مثل تلك القصائد التي انصرف فيها الشاعر عن التعمق في المعاني التي طرقها و ميله إلى الزخارف اللفظية جعل من الدارسين منيتهم شعره النقشي بالجمود أو " بخلايا النحل الشمعية التي يروع الناظر نظامها الهندسي ، غير أنها خالية من العسل ".

---

[1]- الديوان، ص: 156.

[2]- الديوان،ص:167.

[3]- الديوان. ص:178

وفي ذلك القول نظر، لأن الأشعار النقشية تعبر في مضمونها وهيئتها عن مرحلة بعينها مال فيها الشعراء إلى النمط التصويري الذي يناغم في بعض أشكاله معالم التحضر، و معروف عن الشعراء الأندلسيين مدى عنايتهم بتزين القصور و التماثيل و البرك الصناعية و الفوارات الفرش و الحلي و النجف المزدانة بالزخارف الرائعة التكوين ، تلك التعقيدات الحضارية إن صح التعبير كان لها أن تعزز بتعقيدات فنية وجدت طريقها على يد أصحاب الصنعة من الفنانين و الأدباء.[1]

لقد انشغل ابن زمرك بتأكيد المضامين الحضارية، والمعاني التي تؤكد عظمة قصور بني الأحمر في مضاهاة من سبقوهم في التقدم والعمران[2].

فيقول منقوشا على الخشب بالبيت من القصر الكبير:

ماذا عسى التشبيهُ والتمثيلُ والله مَالي في الوجودِ مَثيلُ

فلقَد رَفقت بدار خُلدٍ زُخرِفَت يَرتَدُّ مِنها الطّرفُ وهُوَ كَليلُ

قَصرٌ تَقَاصرَت المدَارِكُ دُونَه فيَحَارُ فِيه الوَهمُ والتّعليـــل

هيْهَات ما كِسرَى ومَا إيوَانُه لا يستوي التّوحيدُ والتّضلِيلُ

قَدَرَ العليمُ قدرَ مَن قد شَادَها فإذا لِيَ التّقديمُ والتّفضيـــل

مُتقَابِلُ الأوضَاعِ مَرقُومُ الحُلى فيَرُوقُك الإجمالُ والتّفصيلُ

---

[1]- ينظر، ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي، المرجع السابق،ص:94.

[2]- ينظر، ابن زمرك الأندلسي حياته و أدبه. المرجعالسابق.ص: 127

فانظُرْبِأندَلُسٍ بيوتَ قُصورِها وَلأَهلِها الإِتقانُ والتّحصِيلُ.[1]

هذه الأبيات من قصيدة تشيد مآثر سلاطين بني الأحمر وما سطروه من إبداع حضاري يمثل تأنقا مدنيا يعكس واقعا اجتماعيا واقتصادي، ينم عن مظاهر الترف النعمة التي أوصلتهم إلى مثل هذا التفنن في المجال المعماري بحيث "شادوا القصور ونحتوا تماثيل جوارح الطير و الحيوان ، وصنعوا نماذج من الأشجار على غرار أشجار الطبيعة وقد حباها الصناع بالزخرفة و الزركشة"[2]

إن فخر ابن زمرك وإعجابه ببيئته الملوكية المتحضرة جعلته يسخر من إيوان كسرى على عظمته، ويزهو في الوقت ذاته بقصور غرناطة وأهلها متبعا كامل الصورة حتى يستوفيها في لقطات جزئية، فهو ينعت مبانيها بقصور الحق لجمالها و جلال أهلها، ويذهب إلى لون من المفارقة فيصف أعداء الإسلام بالضلال أولئك الذين شادوا حضارة واهمة لا تداني الحضارة الإسلامية بعدلها و توحيدها.

إن العمران (فن العمارة) ظاهرة ارتبطت أكثر ما يكون بالحضارة الأندلسية ، و إن جمال الطبيعة لم يمنع الأندلسيين من الاهتمام بتزيين القصور من المرمر بأشكال جميلة تزينها الأشعار التي وضع تصميمها الشعراء الكبار أمثال ابن زمرك و غيره.[3]

ورغم ما قدمته بعض لوحات النقش الشعري من أداء جمالي راق، فإنها لم تسلم من أقلام بعض المستشرقين الذين مالوا إلى التعميم فوصفوها بالرتابة الموهنة و التكرار المضني

---

[1]- الديوان. ص :182

[2]-- ينظر،جماليات الفن العربي. المرجع السابق،ص154

[3]- ينظر، ابن زمرك الأندلسي، حياته و أدبه. المرج السابق،ص:129.

وزوال جمال استعارتها ،بل منهم من اعتبر تدوين الشعر على هيئة النقوش نوعا من الاحتفاظ بجمال الشعر من خلال الكتابة على الجدران بعد أن أهزلته الشيخوخة ، لقد سعى بعض المستشرقين للقول بأن الكتابة النقشية ويقصد هنا زخرفتها ، أضفت على الشعر جمالا بعد وصوله إلى حالة من الضعف المزعوم.[1]

يقول إميليو غارسيا غومث:

"لم يكن هذا الشعر قانعا بأن يظل حبيس مخطوطات يعلوها تراب الزمن وحينما لم يعد قادرا على أن يشغل أو يطرب الأسماع انفجر ذلك المنطاد وتحول إلى فقاقيع جمدت على الجدران فألقت عليها ما كساها من ألوان قوس قزح ، فأصبحت – وما زالت – متعة للعيون بعد أن انقلبت إلى نسيج متشابك من الكتابات المنقوشة كأنها كفن على نعش من الزخارف و التوريقات "[2].

وهذا القول فيه مجافاة للحقيقة ، لأن الشعر كان ومازال حينها فن العربية الأولى ، وكان له أغراضه المختلفة ، و إن هذا الحكم على ضعف الشعر المنقوش لمصلحة الكتابة ليس دقيقا ، فالشعر النقشي كان له ما يسوغه إلى حد ما، إذ أصبح وسيلة من وسائل الإعلام التي تتغنى بأمجاد السلاطين و الأمراء ، ولا تستطيع الكتابة وحدها أن تؤدي دور الشعر، لما للأخير من تأثير في النفوس.

كما أن مجيء الشعر بهذه الشاكلة المزخرفة قد نما وتطور بتأثير من الفن الإسلامي الذي اتسم في بعض صوره بالتجريد و الميل إلى التنميق و التشكيل الهندسي.

---

[1]- ينظر. ابن زمرك حياته وأدبه. المرجع السابق .ص: 133.

[2]- ينظر. ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي. المرجع السابق.ص:107.

ولقد حاول ابن زمرك الجمع في نقشه بين السمات الأسلوبية للشعر و جمال الخط و الكتابة.[1]

و لا يخفى ما لتلك النقوش الكتابية في القصور من أهمية كوثائق و مستندات لا يرقى إليها الشك، إلى جانب أهميتها كعنصر زخرفي ، إنها تسجل لنا أفخم و أجمل طبعة لديوان من دواوين الشعر العربي، فلم يسبق أن صدر ديوان للشعر مذهب و منقوش على الجص و الحجر و الرخام ، و مزخرف بأروع التشكيلات الهندسية و النباتية .[2]

لقد أوحت تلك النقوش بدلالات تعبيرية، سواء ما و قع منها بالمجاز الشعري، أو ما عكسته تلك الأشعار في قالبها الفني الجديد، التي نأت بنفسها على الكراسات المسطورة بالخط المسند لتبرز براقة على سطوح جديدة لها ما يبررها في ذلك العصر.[3]

---

[1]- ينظر. ابن زمرك حياته و أدبه. المرجع السابق . ص:134.

[2]- ينظر ابن زمرك حياته و أدبه. المرجع السابق ص:136

[3]- ينظر المرجع نفسه.ص: 138.

خـــاتـــمـــة

و مما نستخلصه من هذا البحث مايلي:

ـ ازدهرت آلة العمران في غرناطة الأندلسية ازدهارا واضحا و قد ارتبط ذلك الأمر بقوة الدولة الاقتصادية ، ومدى قدرتها على استغلال الثروات الطبيعية و تطوير المعالم العمرانية ، التي برزت من خلال إنشاء القصور و الفنادق و الحمامات و المدارس...إلخ.

ـ أن هذه النهضة لم تكن وليدة العصر الغرناطي فحسب بل كانت امتداد لأعصر خلت سطر فيها الإنسان الأندلسي بأحرف من نور لمسات حضارية ، تشهد له تلك الآثار الباقية حتى العصر نابضة بالحياة مبهرة للعيون و لم تمح كثيرا منها عوادي الزمن أو تقلبات العصور.

ـ تعد قصور الحمراء من أبرز أثار الفن المعماري في غرناطة فهي من آيات الجمال الإنساني ، وصفها المستشرق(فون شاك) وكأنها باتت مرسومة على خرائط محددة المسافات و الأبعاد ، وقد علقت فوق صخرة وعرة المنحدر وسط مناظر طبيعية بالغة الروعة .

ـ وجد الشعراء الغرناطيون و على رأسهم ابن زمرك في هذه القصور ما يثير قرائحهم و يفجر كوامن مشاعرهم ، فجاء وصفهم للقصور دقيقا.

ـ إن أشعار ابن زمرك في أكثر من موضوع و خاصة فيما خط منها نقشا على القصور و ملحقاتها ، بلغت من الزينة البديعية و التعقيدات المتكلفة في الصياغة اللغوية ما جعلها تتعدى لوحة المعنى لتمتد إلى طراز جديد من الشكل الغالب.

ـ تلك الأشعار تناغمت إلى حد ما مع فلسفة الفن الشكلي التي شقت طريقها استجابة إلى مضامين الجمال.

ـ أن الشاعر قد لب فيها ميلا نحو نزعة زخرفية ، نتيجة لتفاعله مع الحياة الجديدة ، وقد برزت هذه النزعة الزخرفية متجسدة في الخط و التصوير و الفسيفساء وصناعة الزجاج الملون و هندسة البناء، ثم سرت إلى صناعتي الإنشاء و النظم .

ـ إن إنشاء القصور وتزينها و زخرفتها يعد جزءا من تلك النزعة الجمالية التي غلبت على نهاية العصر الأندلسي.

ـ أن بيئة غرناطة الأندلسية قد جمعت بين الجمال المعماري و الفن الشعري و تعانقا تميعا ليشكلا رمزا يظل يشهد للعرب المسلمين بأنهم ضربوا في العمق الحضاري بسهم مازالت الآثار تشهد به.

ملاحق

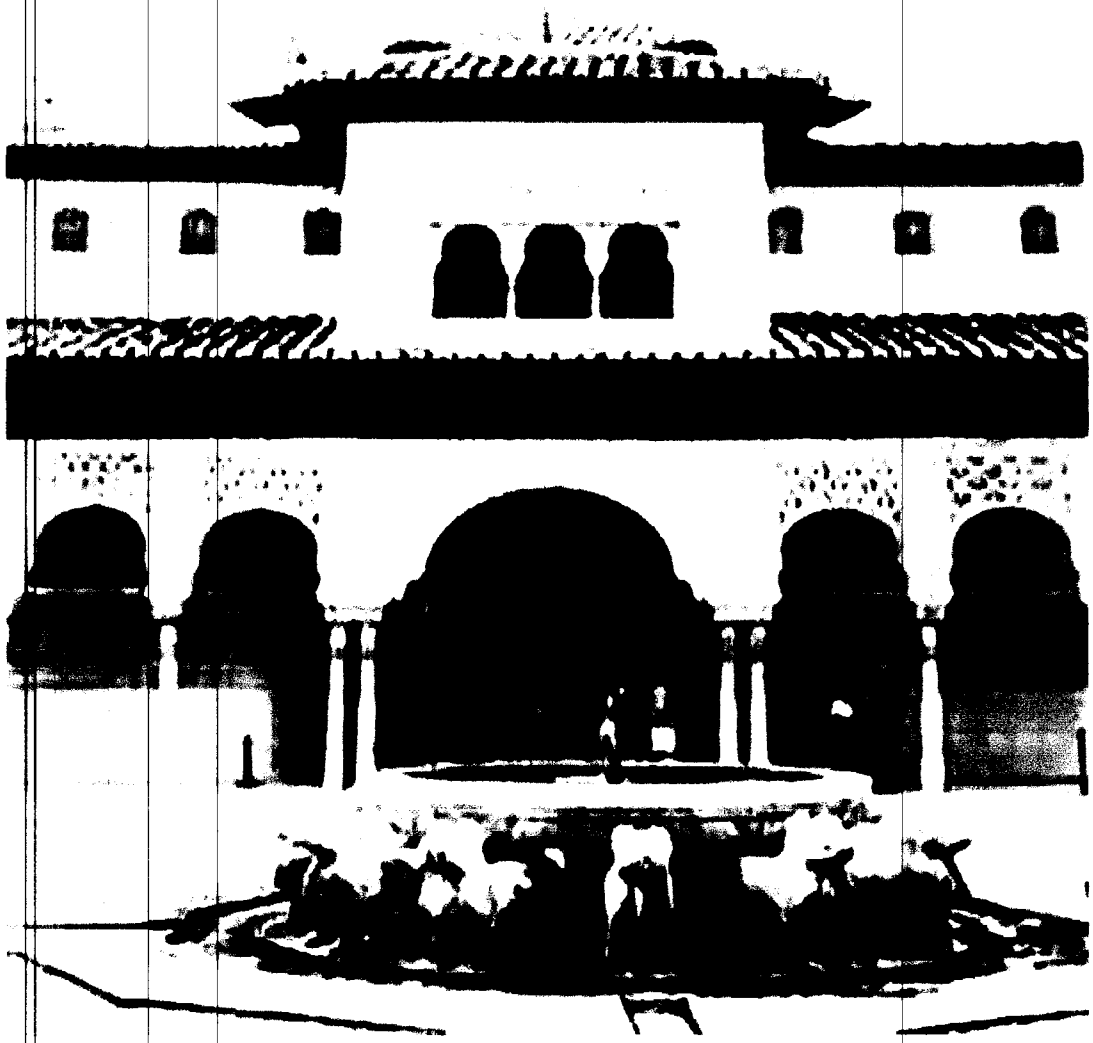

الشكل.1: نقوش على خصة الرخام القائمة عند نافورة الأسود من أوصاف ابن زمرك.

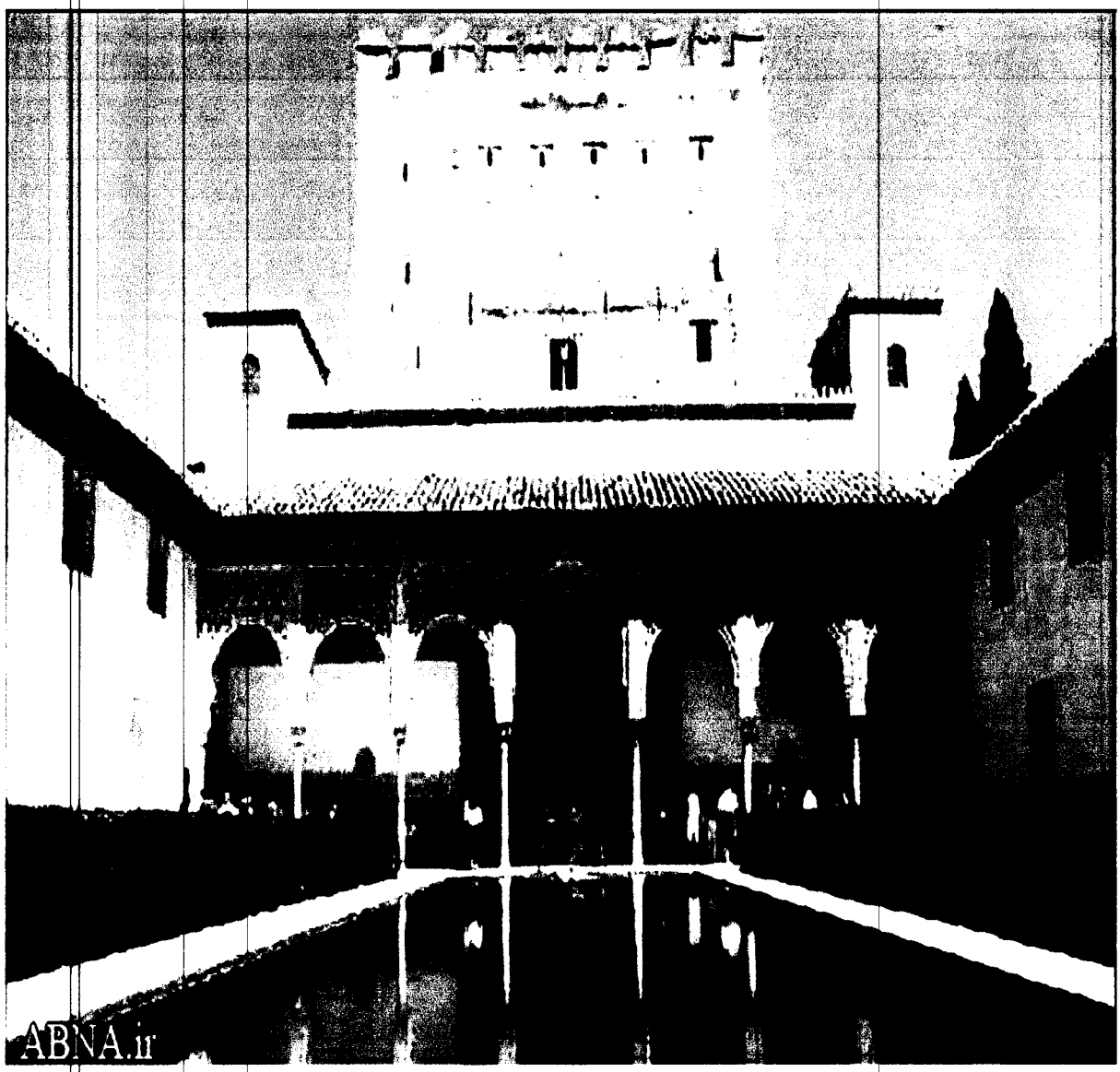

الشكل.2 : صور لقصر الحمراء في غرناطة والمسجد الكبير

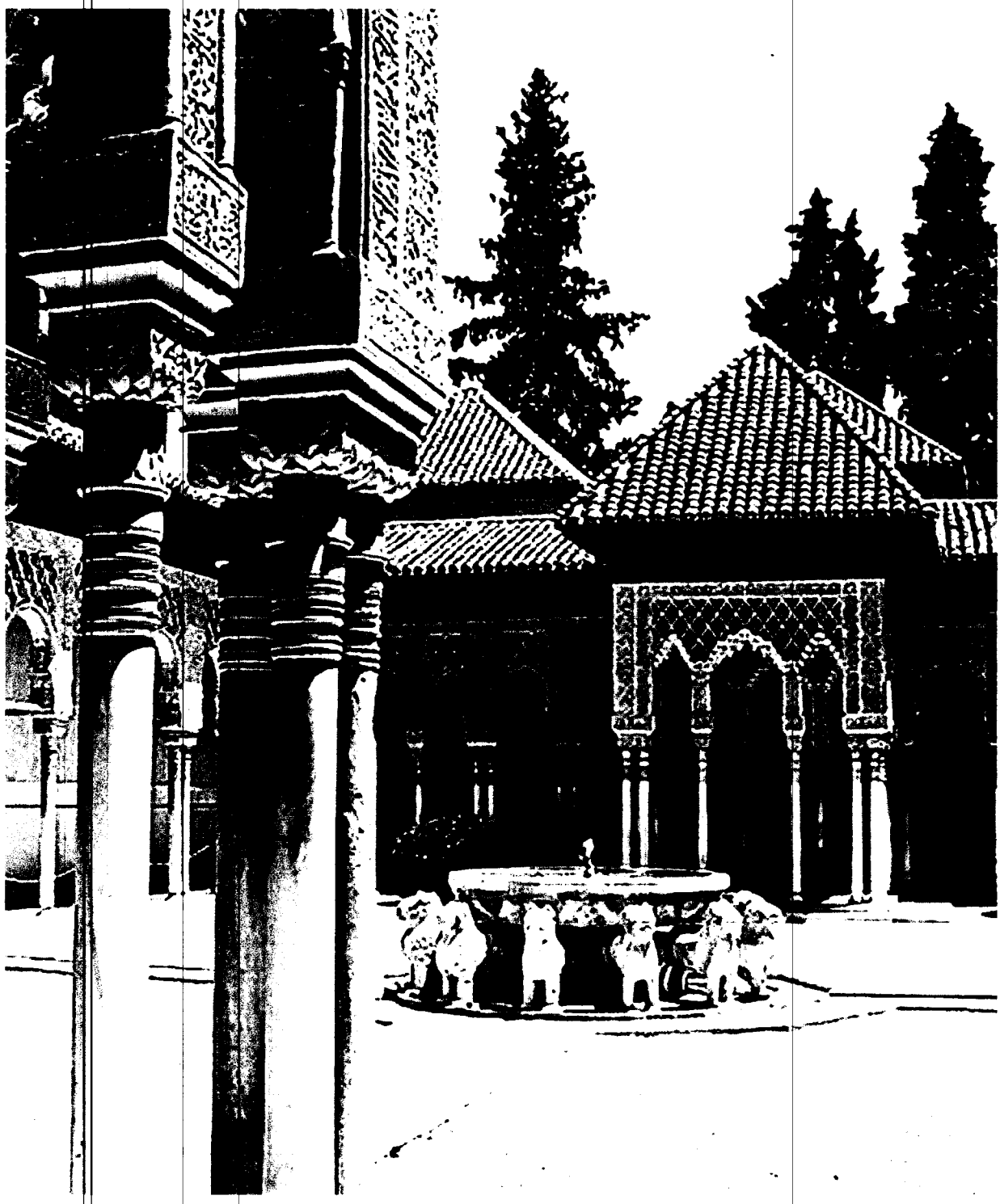

الشكل.3: مشهد لنافورة الأسود مرصع بالمباني الفاخرة ترمز لحضارة إسلامية أنيقة.

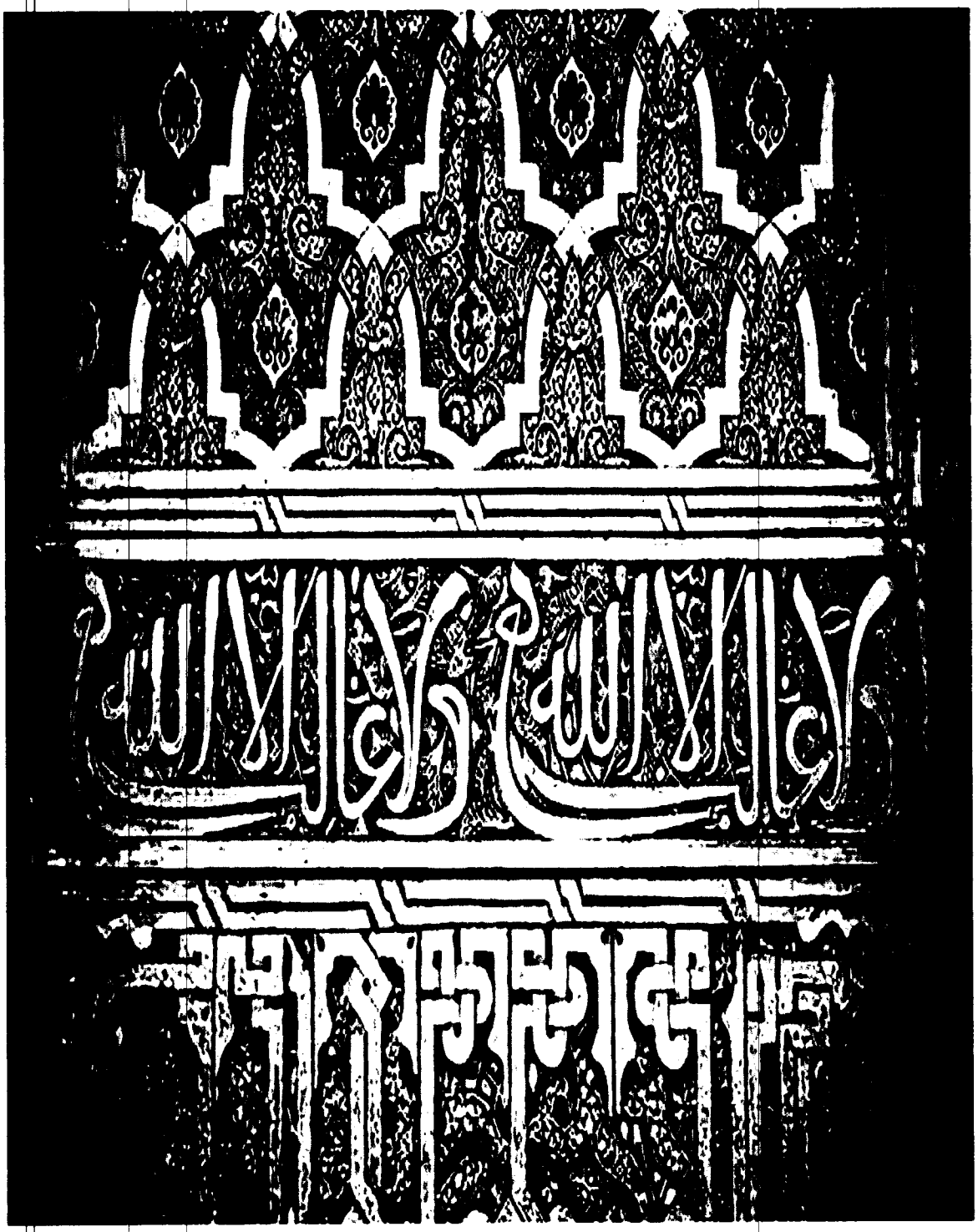

الشكل.4: أحد المخطوطات المعلقة في مسجد الحمراء بغرناطة...للشاعر ابن زمرك

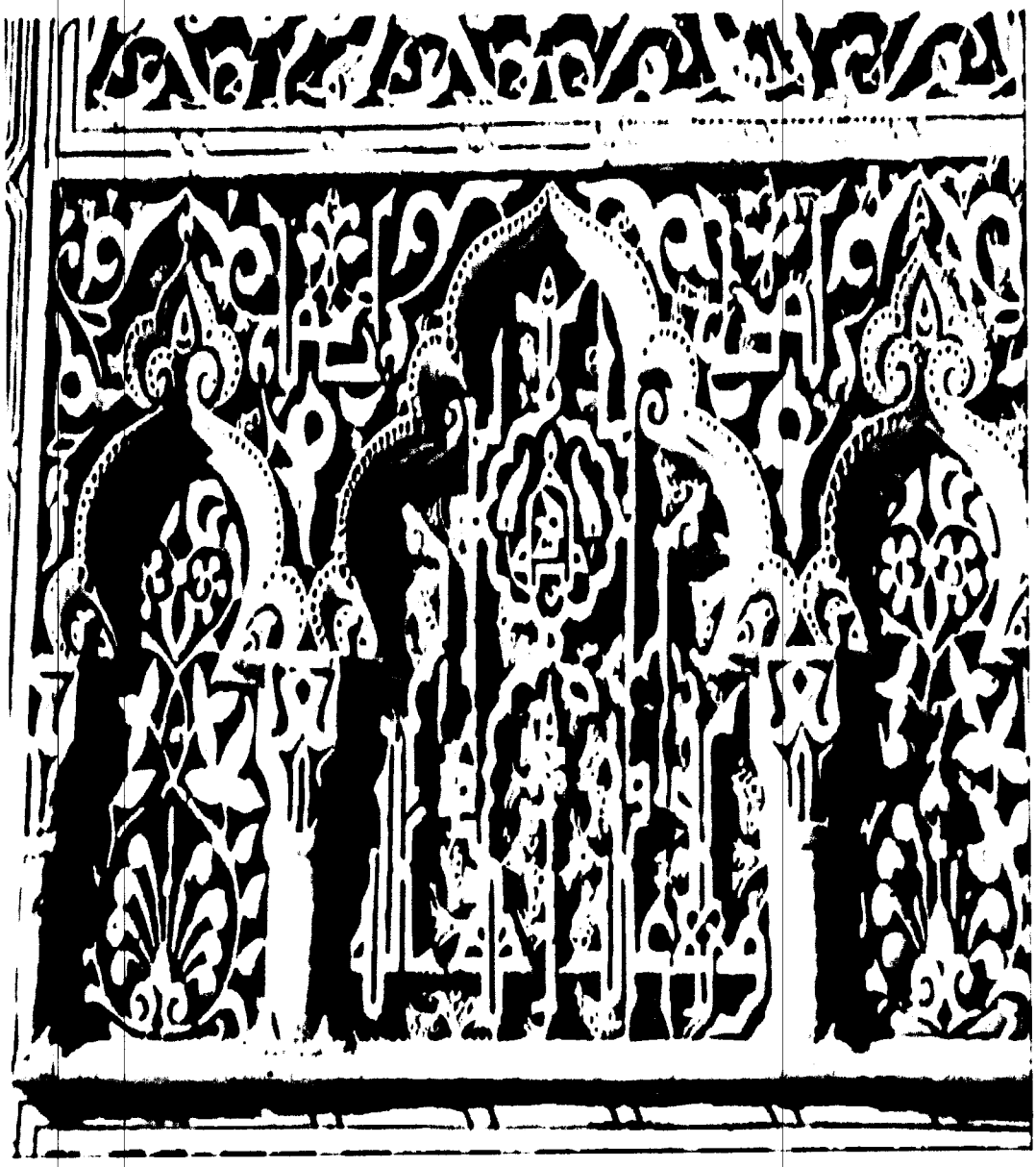

الشكل.5: نقوش كتابية على جدران الحمراء

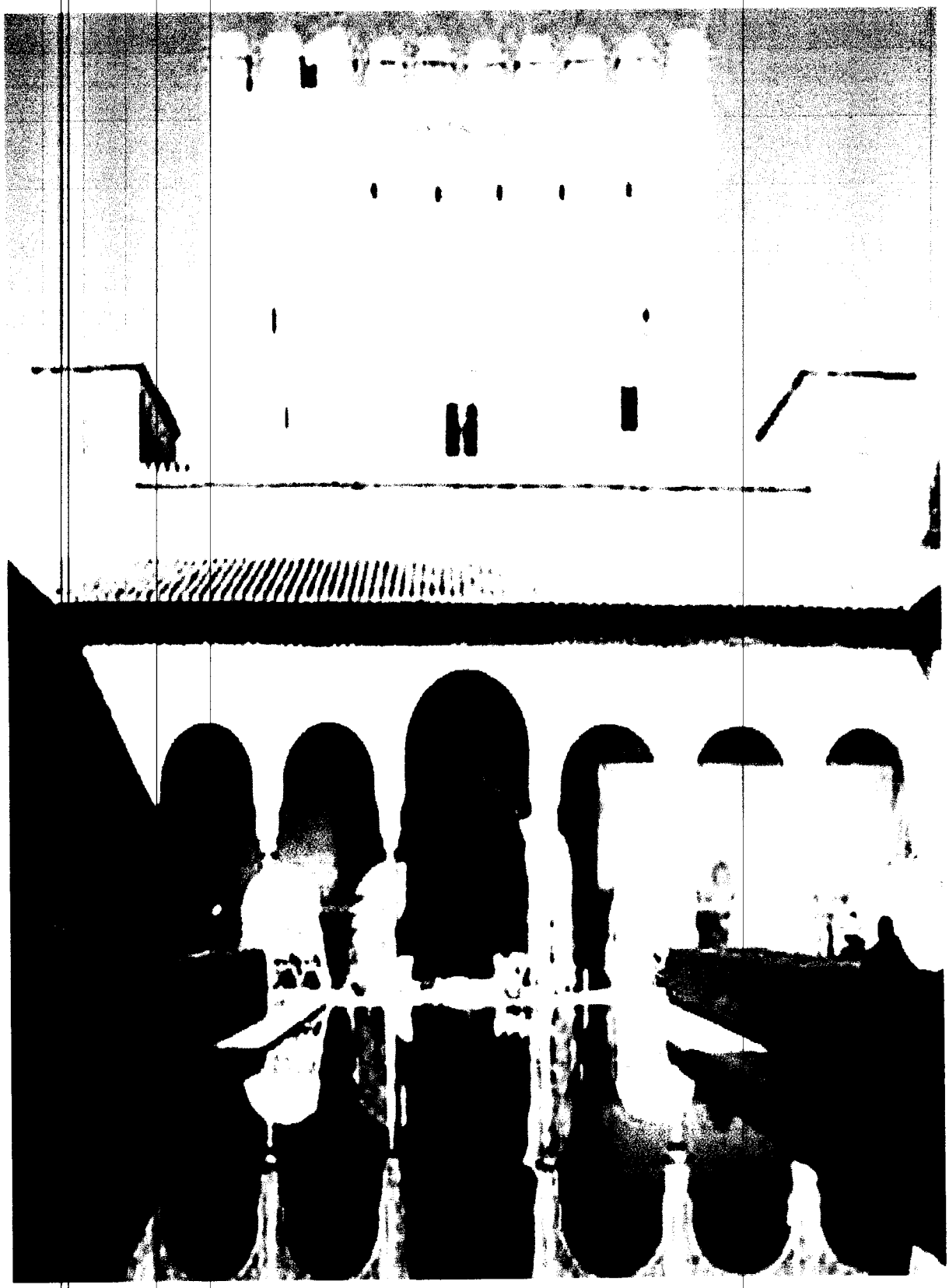

الشكل.6: أعمدة من القصر ذات النقوش الهندسية.

.الشكل.7: الأوصاف من نظم الشعراء كابن زمرك .

الشكل.8: .أحد نوافير قصر الحمراء التي أنطقت الشاعر ابن زمرك.

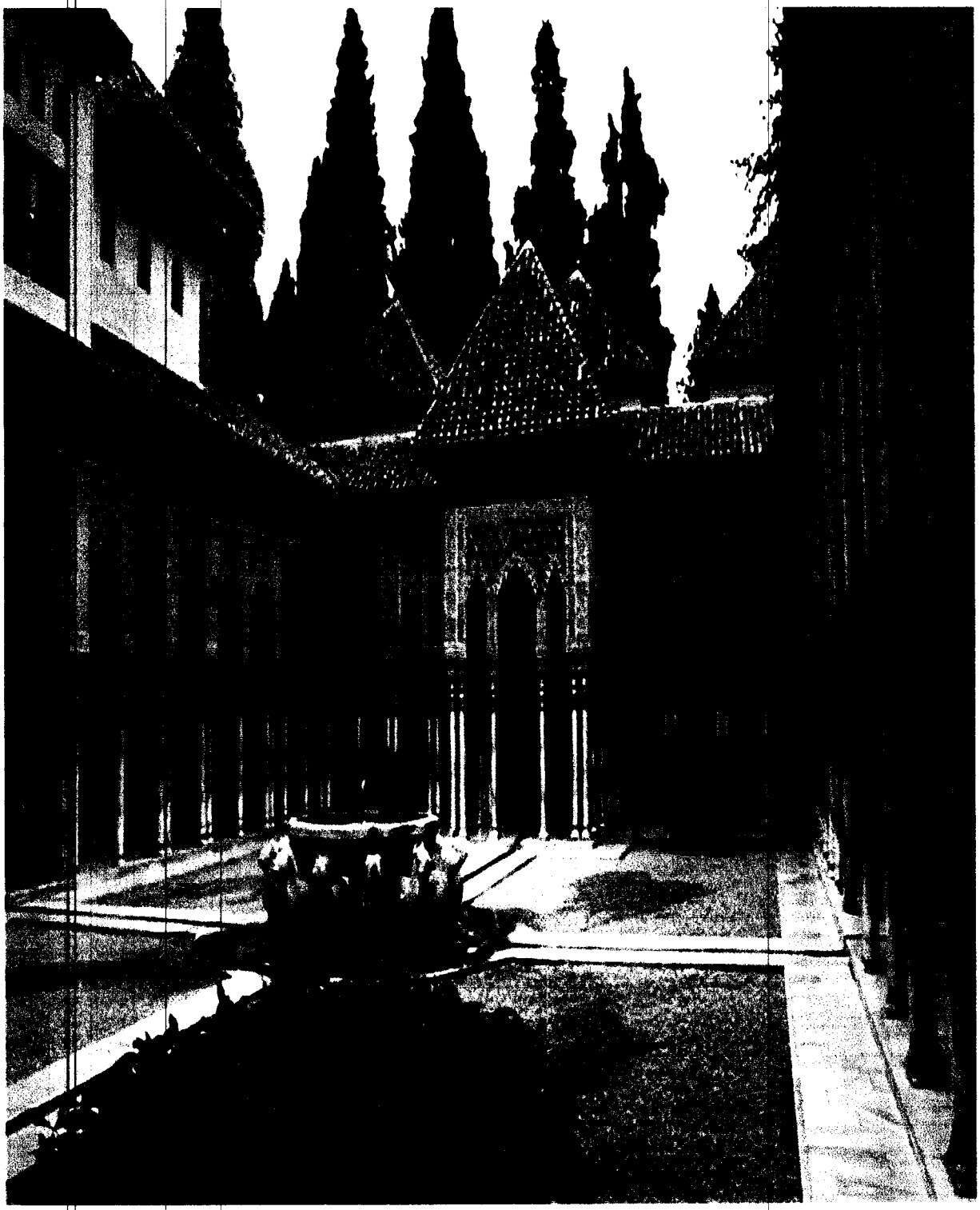

الشكل .9: نقوش لابن زمرك على أعمدة القصر لا تخلو من مظاهر الطبيعة .

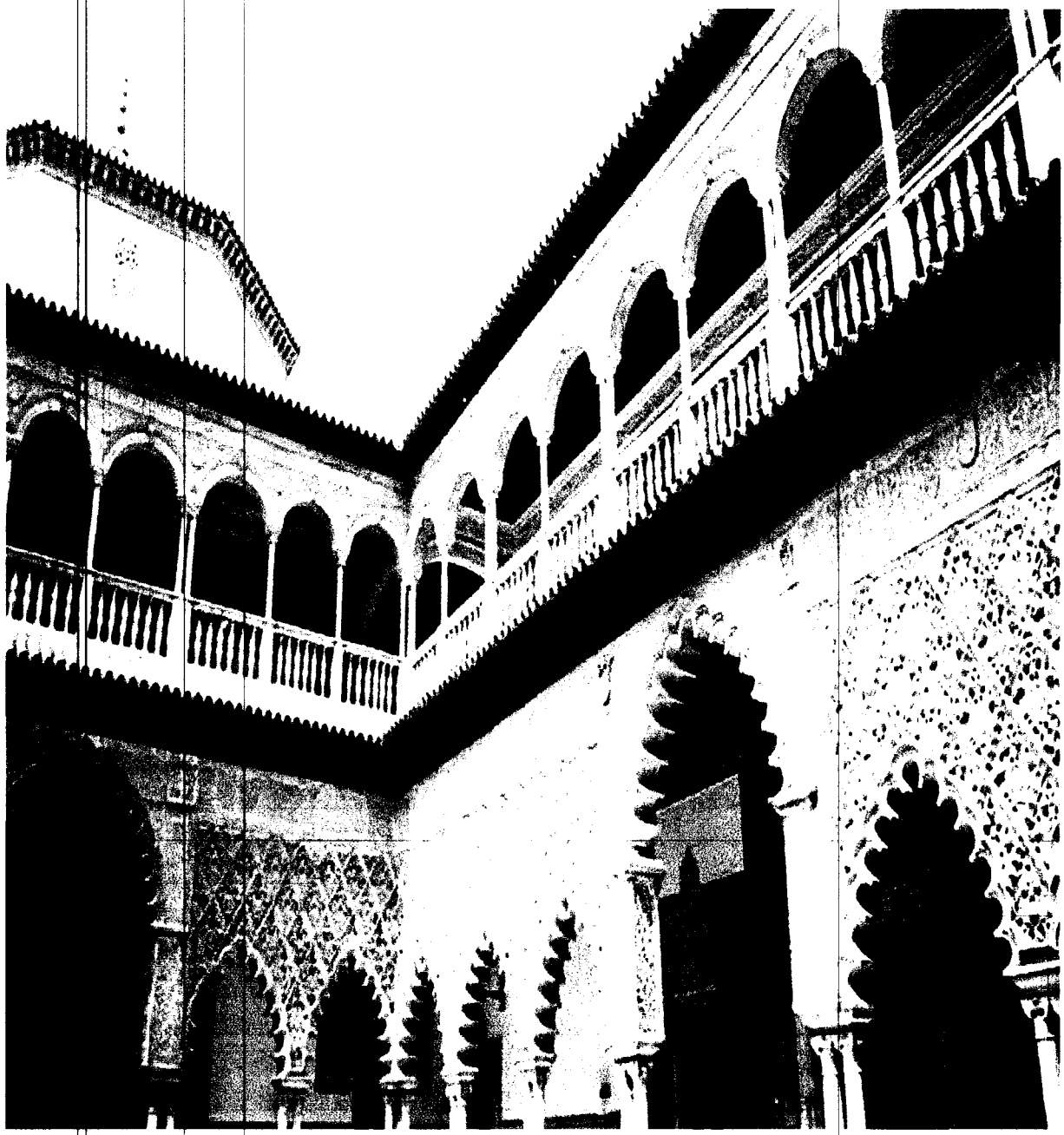

الشكل .10: أحد النقوش الداخلية في القصر

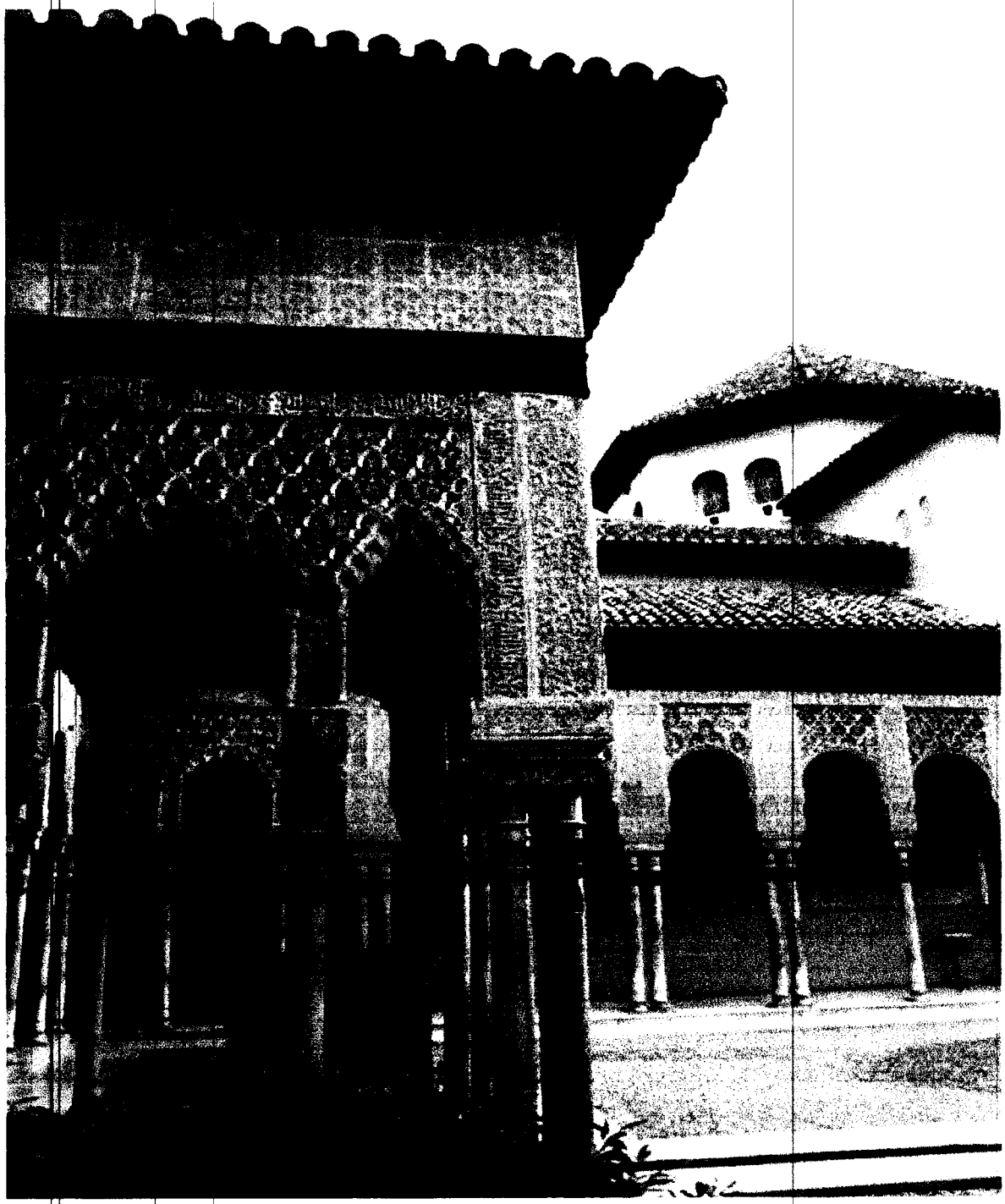

الشكل11: جوانب قصر الحمراء بغرناطة ، ذات زخارف فسيفسائية

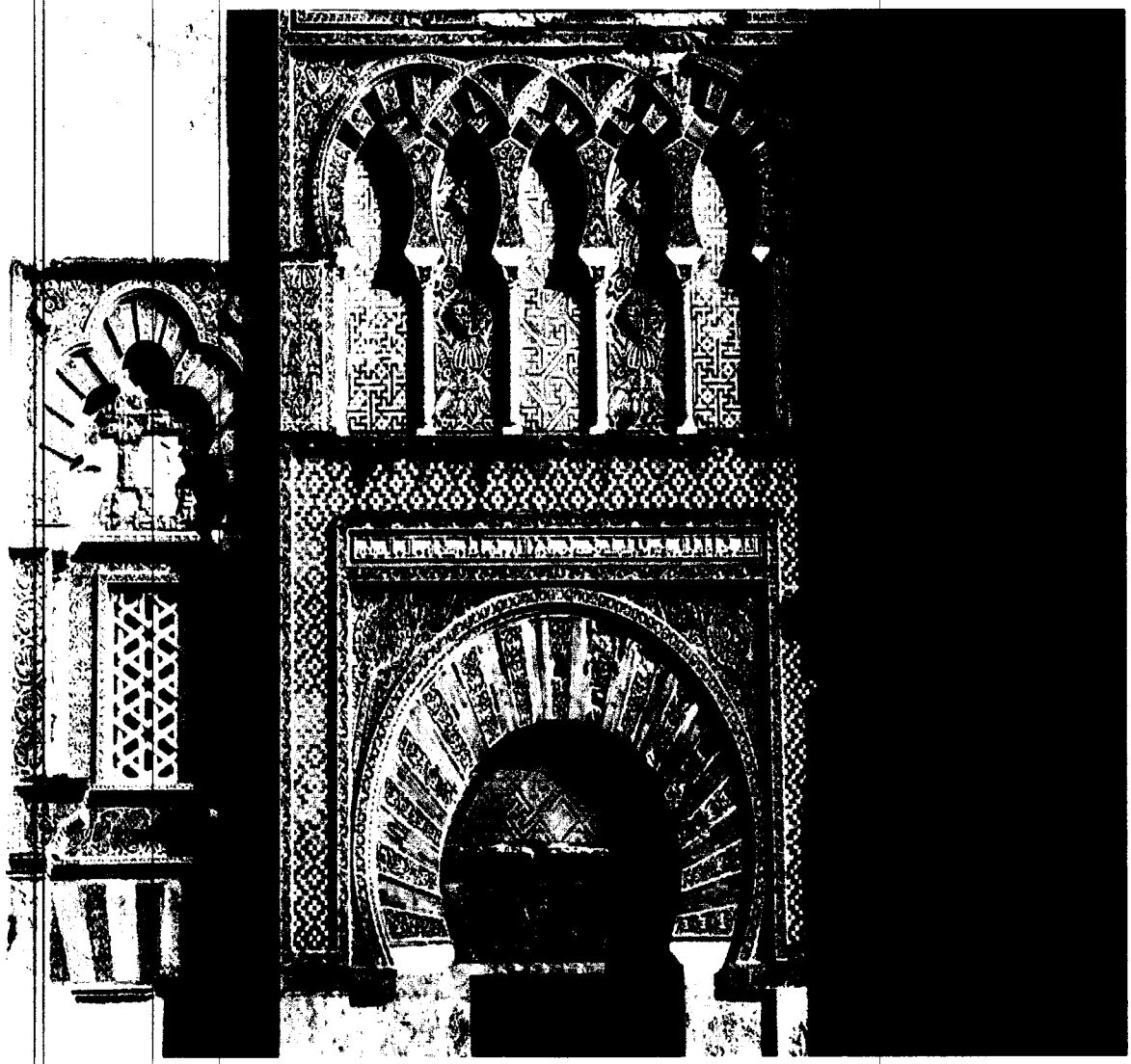

الشكل 12. نقوش على باب البيت من القصر

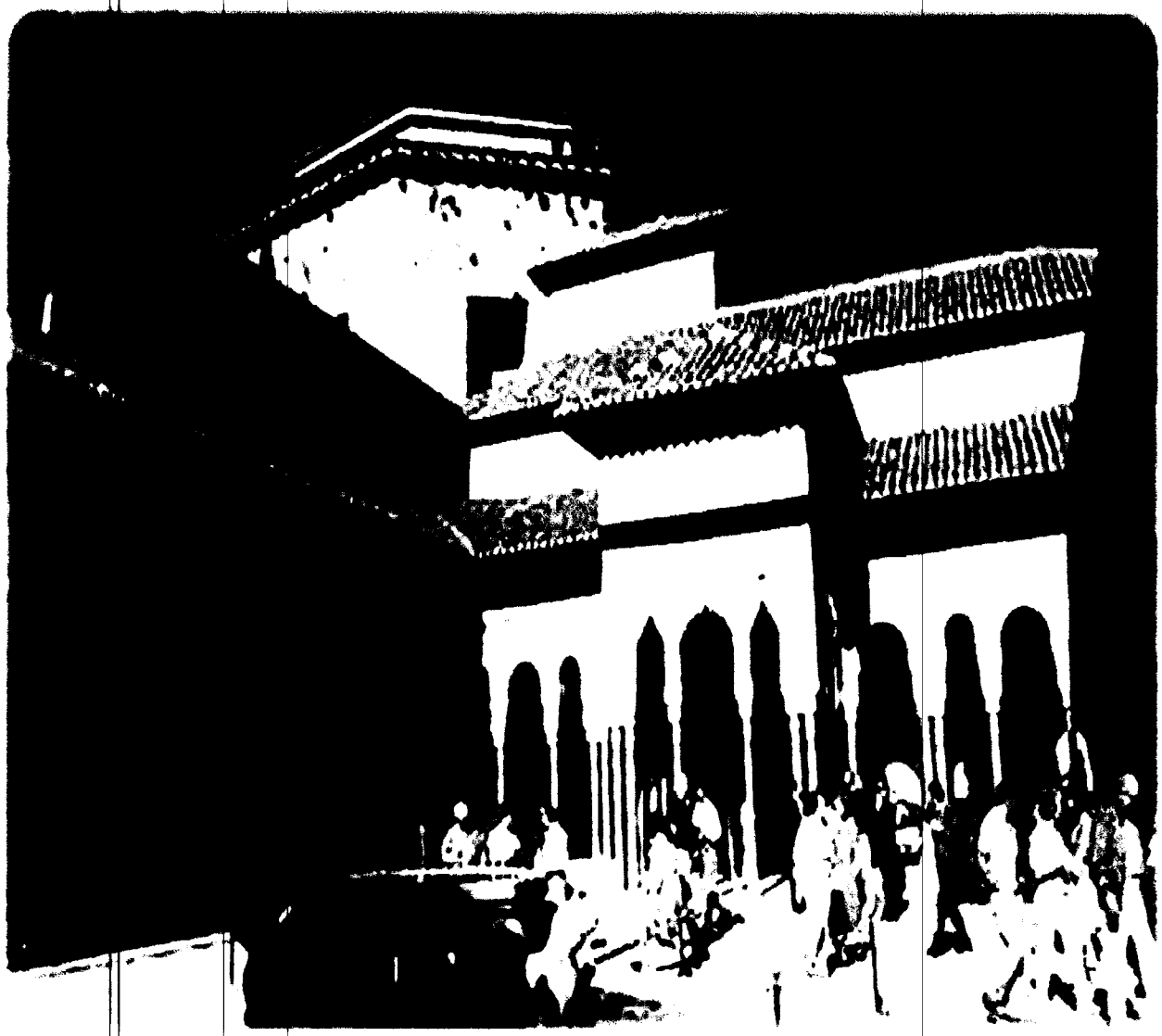

الشكل 13. بعض الزوار المعجبين بسحر الحضارة الإسلامية الأندلسية.

الشكل .14: جنة العريف من أوصاف ابن زمرك

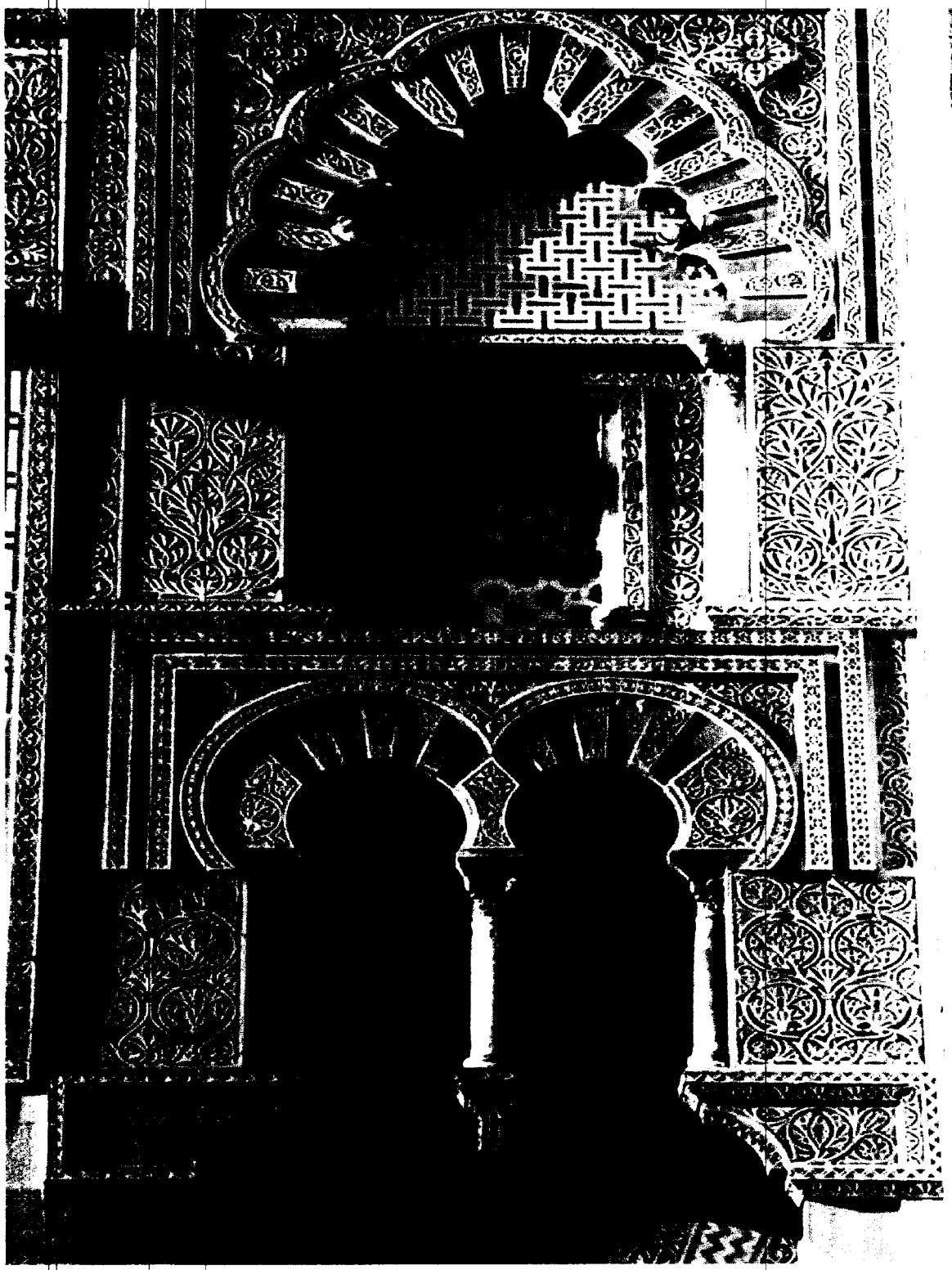

الشكل.15: نقوش على الخشب من باب البيت من القصر.

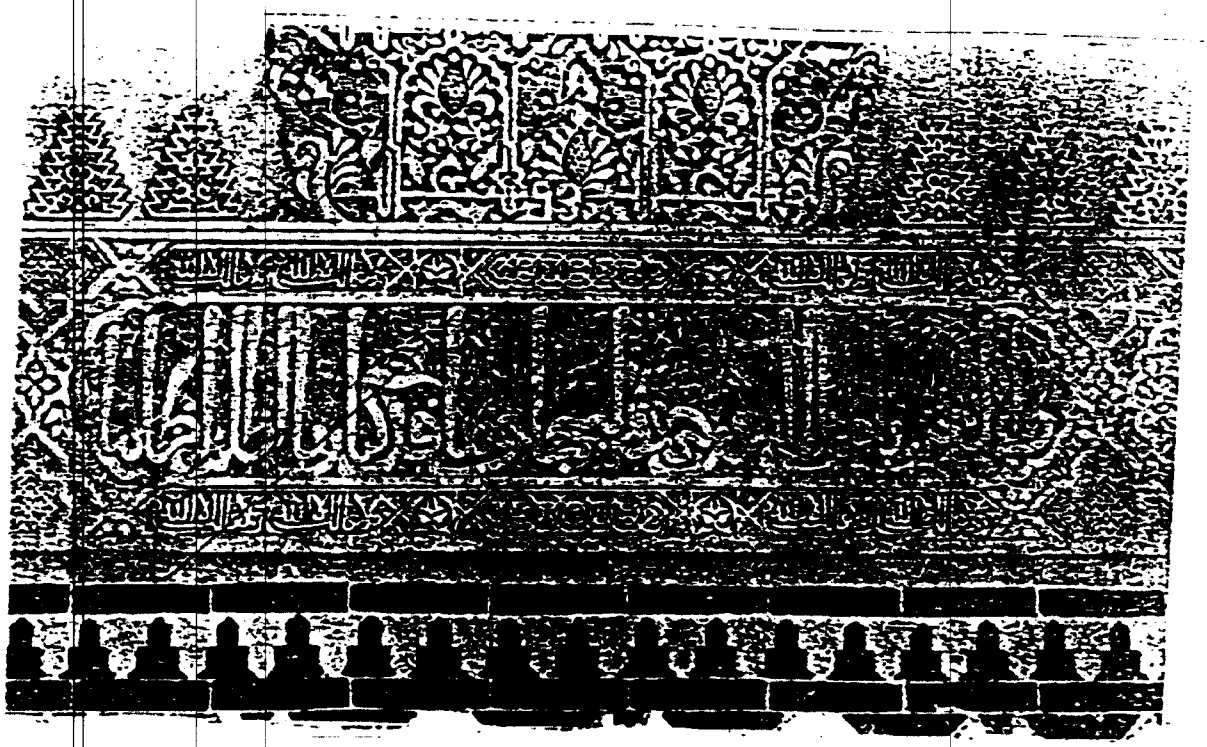

وحارف شعره على أحد جدران الحمراء للشاعر ابن زمرك ، ولعل أصل البيت

طلعت بأفق الملك والدين رجمة لتحلو ما قد كان بالظلم أنست

الشكل .16:

مكتبة البحث

القرآن الكريم (رواية ورش)

1_ ابن الخطيب لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة،1973م،ج1، ط2.

2_ ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن :كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم مِن ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1982م.

3_ ابن خلكان أبا العباس شمس الدين أحمد بن محمد – وفيات الأعيان و أبناء أنباء الزمان ، تحقيق احسان عباس . دار صادر بيروت ،ج2. 1994م.

4_ ابن زمرك محمد بن يوسف الصريحي الأندلسي الغرناطي: الديوان، تحقيق:أحمد سليم الحمصي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت،1998م،ط1.

5_ ابن عسكر أبو عبد الله محمد بن علي بن الخضر بن هارون الغساني – أعلام مالقة - تقديم وتعليق عبد الله المرابط ، دار الغرب الإسلامي ، دار الأماني النشر و التوزيع مطبعة دار صادر، ط1. 1999م.

6_ أبو بكر بن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق وتعليق إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

7_ أبو الحسن علي ابن أبي الكرم محمد بن محمد عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ ،بيروت لبنان .198،ج2، ط6.

8_أبو عبد الله الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي ، مقتبس من كتاب "نزهة المشتاق"،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

9_ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1976م، ط6.

10_ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة بيروت لبنان 1972م.

11_ أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة.

12_ أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب والمسلمين، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان ،ط2 ،1979م.

13_ الحاج محمد رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحضارة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، 1995م.

14_ حسين مؤنس: رحلة الأندلس.حديث الفردوس الموعود، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة.ط1. 1963م.

16/15_ حمدان حجاجي:

- حياة وآثار ابن زمرك شاعر الحمراء، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون الجزائر.

- شعر وموشحات الوزير ابن زمرك الأندلسي، ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية. بن عكنون، الجزائر، الطبعة مشتركة بين المؤسسة الوطنية للكتاب وديوان المطبوعات الجامعية.

17_ جار الله العازم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، 1965م.

18_ شهاب الدين أحمد بن محمد المقرّي التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق:إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،ج1.

19_ صالح عبد السلام البغدادي، ابن زمرك الأندلسي حياته وأدبه،

20_ عباس محمود العقاد: الإسلام والحضارة الإسلامية، صيدا - بيروت.

21_ عبد العزيز الدولاتي: مسجد قرطبة وقصر الحمراء، دار الجنوب للنشر، تونس، 1970م.

22_ عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت لبنان. ج1، 1971م.

23_ عفيف بهنسي: جماليات الفن العربي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب، الكويت .1979م.

24_ محمد بن عمرو الطمار: تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر. 1984م.

25_ محمد الجون، أثر الأندلسيين في الأدب الموحّدي.

26_ محمد عبد العزيز مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار الثقافة بيروت، لبنان.

27_ محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس والمغرب، ج2. ط1. 1964م.

28_ محمد عبد المنعم الخفاجي: الأدب الأندلسي. التطور والتجديد، دار الجيل بيروت لبنان. ط1. 1992م.

29_ محمد النيفر: ديوان ابن زمرك، دار الغرب الإسلامي ط1 . 1997م.

30_ مصطفى عوض الكريم: فن التوشيح، دار الثقافة، بيروت، لبنان . 1956م.

31_ يوسف الحوراني: الإنسان والحضارة مدخل ودراسة،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1973م.

32_ يوسف بن هارون: شعر الرمادي، بيروت،لبنان ، ط1. 1980م.

33_ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأنباري عبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة ط1. 1939م.

الكتب المترجمة:

34_ إميليو غارسييه غومث وآخرون: ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي، ترجمة:محمود مكي. القاهرة. 1999م.

فهرس الموضوعات

المحتويات:

العناويـــــــــن **الصفحـــــــة**

مقدمة :.....(أ. ب. ج. د.)

الفصل الأول:

لمـــــــــــحة عن الأندلـــــــــــس

المبحث الأول: نبذة تاريخية عن الأندلس.

أ- الموقع الجغرافي لبلاد الأندلس: .....(02)

ب- الفتح الإسلامي للأندلس: .....(04)

ت- الهجرات الأندلسية: .....(06)

المبحث الثاني: نبذة فنية حضارية عن الأندلس.

أ- الزخرفة في المباني: .....(14)

ب- الزخرفة الفخارية و الخزفية : .....(16)

المبحث الثالث: لمحة عن الشعر الأندلسي.

أ- مميزات الشعر الأندلسي:

1ـــ من حيث الأغراض: .....(18)

2ـــ من حيث الألفاظ و الأساليب: .....(20)

3ـــ من حيث المعاني: .....(21)

ب ـــ بعض شعراء الأندلس: .....(21)

ج ـــ صورة من فن الموشحات: .....(24)

الفصل الثاني

نبـــذة عن حياة الشاعر ابن زمـــرك

المبحث الأول:طفولته

ـــ أسمه : .....(30)

ـ نسبه: .....(31)

المبحث الثاني: حياتـــه

تكوينه : .....(32)

نشأته: .....(33)

المبحث الثالث: آثاره

سنواته الأخيرة: .....(42)

إنتاجه الشعري: .....(47)

الفصل الثالث:

جمالـــية شعر ابن زمرك في الوصف الحضـــــــــــاري

المبحث الأول: وصف المدن.

أـــ غرناطة: .....(51)

ب ـــ مالقة:.....(55)

المبحث الثاني: وصف المباني.

أـــ المشور: .....(60)

ب ـــ قصر شنيل: .....(62)

ج ـــ المحدث: .....(63)

د ـــ الحمراء: .....(64)

المبحث الثالث: شعرالنقوش عند ابن زمرك:

ـــ دراسة موضوعية: .....(66)

ـــ خاتمـــــــــــــــة: .....(78)

ـــ ملاحـــــــــــــــق: .....(81)

_مكتبة البحث: .....(98)

ـــ فهرس الموضوعات: .....(103)